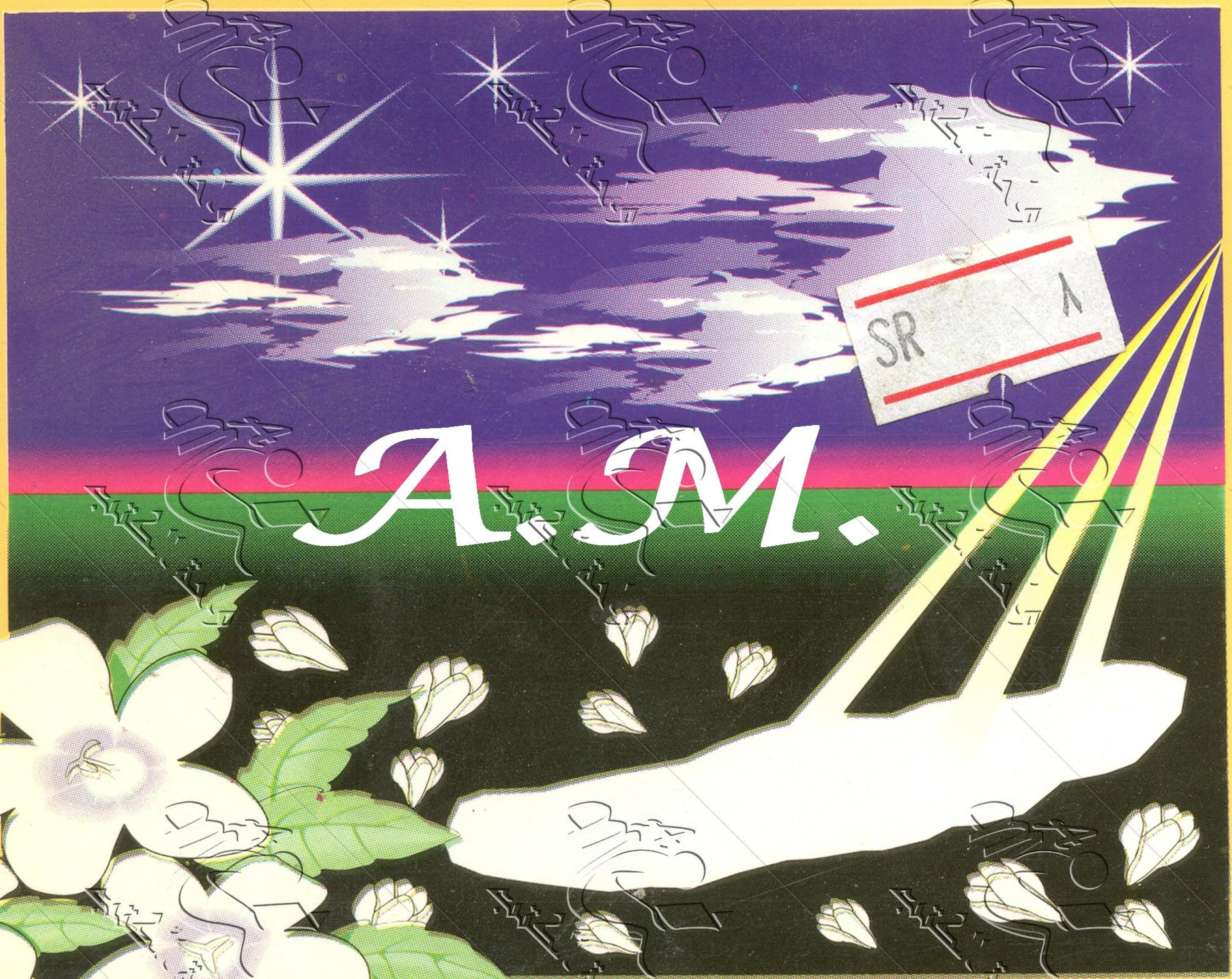
حكاياتُ حوّاء 451

عروسٌ تُزفُّ إلى قبرِها

وقصص أخرى

الأديب الكبير
مصطفى صادق الرافعي
وآخرون



دار ابن حزم
مكتبة
دار حواء
الثقافة الناعمة

سلسلة حكايات حواء

Tuseday
13/7/2015
رمضان 27



عروس تزف إلى قبرها

وقصص أخرى

الأديب الكبير
مصطفى صادق الرافعي
وآخرون

مكتبة
دار حواء
الثقافة الناعمة

دار ابن حزم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

كانت سلسلة (حكايات حواء) حلماً.. ثم اقتربت أكثر لتكون فكرة واكبت انطلاقة (دار حوّاء).. ثم غدت واقعاً بوصول هذه المجموعة وقريناتها إلى أيدي القراء الكرام.. والحمد لله على توفيقه.

ولم يكن مبعث الحلم والفكرة والواقع لدينا سوى أن نقدم إلى حوّاء ـ خصوصاً ـ وإلى جميع طلاب الأدب والفن القصصي، زاداً ـ وإن كان يسيراً ـ إلا أنه يملأ مساحة بديلة عمّا يتوهمه كثير من المتعطشين إلى الثقافة بأنه أدب أو فن بليغ، تلفظه أقلام بعيدة عن الله، قد التصقت أرواح حامليها بأجسادهم فاتخذتها معابد شهوة وإغواء، ومصّت كتاباتهم الأضواء حتى خالها العامة مصابيح فكر وثقافة.

على حين تزخر الساحة الثقافية المعاصرة بأقلام رفيعة الأدب بقدر ترفُّع أصحابها عن البهرج الكاذب والزيف المُدَّعى، مالكة لنواصي البلاغة والبيان ملك حملتها لطهارة الفكر ونصاعة الأخلاق، إلا أن (جارية الحي لا تطرب) كما يقول المثل القديم، إذ يتلقف الناس في وقتنا قصص نجيب محفوظ وإحسان عبد القدوس ويوسف إدريس كمن حظي بكنز من المعرفة!! بينما توارت روائع قصص الرافعي والزيات والمجذوب وكأنما أبت عليها مكانتها السامية في دنيا الأدب أن تسابق الغثاء الطافي على السطح، مثلما يتأبى الأمراء عن مخالطة السوقة في مجالس القيل والقال. !!.

لقد رأينا في ضم هذه الأقاصيص الجميلة إلى بعضها في مجموعات منوعة لكتّاب مرموقين عملاً أشبه ما يكون بتقديم أحلى ورود البساتين في باقات أنيقة إلى الأعزاء في مناسبات الهناء.

وإننا لنرجو أن نكون قد وفقنا في اختياراتنا مثلما وفقنا في حرصنا على المؤلفين الكبار لهذه المجموعات

القصصيـة، وإن فيهم لمن قضى نحبه وورث الأدب خـلاصـة روحــه.. وفيهم العلماء الأجـلاء ممن لهم البلاغة والبيان إلى جانب العلم والتُّقى والصلاح.. وفيهم الأطبـاء بـأدواء الجسـوم العـارفـين بـأشــواق الأرواح.. وعــلى العمــوم فكلهم صــاحب فكــر نظيف.. وقلم عف.. ومنهج قويم.

وليس لنـا من أمنية إلا أن تحـوز هذه المجمـوعة القصصيـة وبقية المجمـوعات الأخـرى على تـرحيب وقبـول القراء الكـرام، وتلبي بعضـاً من نهمهم إلى المعرفة الراقية والفن الأصيل، وعسى أن تتحقق أمنيتنا ومن الله تعالى نرجو الفضل والسداد.

لجنة البحوث والدراسات

دار حــواء

عروس تزف إلى قبرها



الأديب الكبير
مصطفى صادق الرافعي


واحة الكتب

عروس تزف إلى قبرها

الاديب الكبير الاستاذ
مصطفى صادق الرافعي

١

كان عمرها طاقة أزهار تسمى أياماً.

كان عمرها طاقة أزهار ينتسق فيه اليوم بعد اليوم كما تنبت الورقة الناعمة في الزهرة إلى ورقة ناعمة مثلها.

أيام الصبا المرحة حتى في أحزانها وهمومها؛ إذ كان مجيئها من الزمن الذي خص بشباب القلب، تبدو الأشياء في مجاري أحكامها كالمسحورة؛ فإذا كانت مفرحة جاءت حاملة فرحين، وإن كانت محزنة جاءت بنصف الحزن.

تلك الأيام التي تعمل فيها الطبيعة لشباب الجسم بقوى مختلفة: منها الشمس والهواء والحركة، ومنها الفرح والنسيان والأحلام!.

* * *

وشبت العـذراء وأفـرغت في قـالب الأنـوثـة الشمسي القمري، واكتسى وجهها ديباجة من الزهر الغض، وأودعتها الطبيعة سرها النسائي الذي يجعل العـذراء فنّ جمـال لأنها فنّ حيـاة، وجعلتهـا تمثـالا للظرف: وما أعجب سحر الـطبيعة عنـدما تتجمـل العذراء بظرف كـظرف الأطفال الـذين ستلدهم من بعـد! وأسبغتْ عليها معـاني الرقـة والحنـان وجمـال النفس؛ وما أكرم يـد الطبيعـة عندمـا تمهر العـذراء من هذه الصفات مهرها الإنساني!.

وخـطبت العذراء لـزوجها، وعقـد لـه عليهـا في اليوم الثالث من شهر مارس في الساعة الخامسة بعد الظهر.

ومـاتت عـذراء بعـد ثـلاث سنـين، وأنـزلت إلى قـبرها في اليـوم الثالث من شهـر مارس في السـاعـة الخامسة بعد الظهر!.

وكـانت السنـوات الثـلاث عمـر قلب يقـطعـه المـرض، ينتـظرون بـه العـرس، وينتـظر بنفسـه الرَّمْس!.

ياعجائب القدر! أذاك لحن موسيقي لأنـين استمر

ثلاث سنوات ، فجاء آخره موزوناً بأوله في ضبط ودقة؟ .

أكانت تلك العذراء تحمل سراً عظيماً سيغير الدنيا، فردت الدنيا عليها يوم التهنئة والابتسام والزينة، فإذا هو يوم الولولة والدموع والكفن؟ .

٢

وآهاً أيها الزمن! من الذي يفهمك وأنت مدة أقدار؟ .

واليوم الواحد على الدنيا هو أيام مختلفةٌ بعدد أهل الدنيا جميعاً، وبهذا يعود لكل مخلوق سر يومه، كما أن لكل مخلوق سر روحه، وليس إليه لا هذا ولا هذا.

وفي اليوم الزمني الواحد أربعمائة مليون يوم إنساني على الأرض! ومع ذلك يُحصيه عقل الإنسان أربعاً وعشرين ساعة، ياللغباوة. . !

وكل إنسان لا يتعلق من الحياة إلا بالشعاع الذي يضيء المكان المظلم في قلبه، والشمس بما طلعت عليه لا تستطيع أن تنير القلب الذي لا

يضيئه إلا وجه محبوب.

وفي الحياة أشياء مكذوبة تكبر الدنيا وتصغر النفس، وفي الحياة أشياء حقيقية تعظم بالنفس وتصغر بالدنيا! وذهب الأرض كله فقرٌ مدقعٌ حين تكون المعاملةُ مع القلب.

أيتها الدنيا؛ هذا تحقيرك الإلهي إذا أكبرك الإنسان!.

* * *

وياعجباً لأهل السوء المغترين بحياة لابد أن تنتهي! فماذا يرتقبون إلا أن تنتهي؟ حياة عجيبةٌ غامضة؛ وهل أعجب وأغمض من أن يكون انتهاء الإنسان إلى آخرها هو أول فكرة في حقيقتها؟

فعندما تحين الدقائق المعدودة التي لا ترقمها الساعة ولكن يرقمها صدر المحتضر.. عندما يكون ملك الملوك جميعاً كالتراب لا يشتري شيئاً البتة..

... ماذا يكون أيها المجرم بعدما تقترف الجناية، ويقوم عليك الدليل، وترى حولك الجند والقضاة، وتقف أمامك الشريعة والعدل؟.

* * *

أعمالنا في الحياة هي وحدها الحياة، لا أعمارنا، ولا حظوظنا. ولا قيمة للمال، أو الجاه، أو العافية، أو هي معاً - إذا سلب صاحبها الأمن والقرار! والآمن في الدنيا من لم تكن وراءه جريمة لا تزال تجري وراءه. والسعيد في الآخرة من لم تكن له جريمة تطارده وهو في السماوات.

كيف يمكن أن تخدع الآلة صاحبها وفيها (العدّادُ): ما تتحرك من حركة إلا أشعَرَتْه فعدّها؟ وكيف يمكن أن يكذب الإنسان ربه وفيه القلب: ما يعمل من عمل إلا أشعره فعده؟

٣

ورأيت العروس قبل موتها بأيام..

أفرأيت أنت الغنى عندما يدبر عن إنسان ليترك له الحسرة والذكرى الأليمة؟ أرأيت الحقائق الجميلة تذهب عن أهلها فلا تترك لهم إلا الأحلام بها؟ ما أتعب الإنسان حين تتحول الحياة عن جسمه إلى الإقامة في فكره!.

وما هي الهموم والأمراض؟ هي القبر يستبطىء

صاحبه أحياناً فينفض في بعض أيامه شيئاً من ترابه..!

رأيت العروس قبل موتها بأيام، فيالله من أسرار الموت ورهبتها! فرغ جسمها كما فرغت عندها الأشياء من معانيها! وتخلَّى هذا الجسم عن مكانه للروح تظهر لأهلها وتقف بينهم وقفة الوداع!

وتحول الزمن إلى فكر المريضة؛ فلم تعد تعيش في نهار وليل، بل في فكر مضيء أو فكر مظلم!

ياإلهي! ما هذا الجسم المتهدِّم المقبل على الآخرة؛ أهو تمثال بطل تعبيره، أم تمثال بدأ تعبيره؟

لقد وثقت أنه الموت، فكان فكرها الإلهي هو الذي يتكلم؛ وكان وجهها كوجه العابد: عليه طيف الصلاة ونورها. والروح الإنسانية متى عَبَّرَتْ لا تُعَبِّرُ إلا بالوجه.

ولها ابتسامة غريبة الجمال، إذ هي ابتسامة آلام أيقنت انها موشكة أن تنتهي! ابتسامة روح لها مثل فرح السجين قد رأى سجّانه واقفاً في يده الساعة يرقب الدقيقة والثانية ليقول له: انطلق!.

* * *

ودخلت أعودها فرأت كأنني آتٍ من الدنيا.. وتنسَّمت مني هواء الحياة، كأنني حديقة لا شخص.

ومَنْ غير المريض المدنف، يعرف أن الدنيا كلمة ليس لها معنى أبداً إلا العافية؟ مَنْ غير المريض المشرف على الموت، يعيش بقلوب الناس الذين حوله لا بقلبه؟.

تلك حالة لا تنفع فيها الشمس ولا الهواء ولا الطبيعة الجميلة، ويقوم مقام جميعها للمريض أهله وأحباؤه!.

وكان ذووها من رهبة القدر الداني كأنهم أسرى حرب أجلسوا تحت جدار يريد أن ينقض! وكانت قلوبهم من فزعها تنبض نبضاً مثل ضربات المعاول.

وباقتراب الحبيب المحتضر من المجهول، يصبح من يحبه في مجهول آخر، فتختلط عليه الحياة بالموت، ويعود في مثل حيرة المجنون حين يمسك بيده الظل المتحرك ليمنعه أن يذهب! وتعروه في ساعة واحدة كآبة عمر كامل، تهيىء له جلال الحس الذي يشهد به جلال الموت!.

* * *

وحانت ساعة ما لا يفهم، ساعة كل شيء، وهي ساعة اللاشيء في العقل الإنساني ! فالتفتت العروس لأبيها تقول: «لا تحزن ياأبي..» ولأمها تقول: «لا تحزني ياأمي..».

وتبسمت الدموع كأنما تحاول أن تكلمها هي أيضاً، تقول لها: «ولا تبكي..!» وأشفقت على أحيائها وهي تموت، فاستجمعت روحها ليبقى وجهها حياً من أجلهم بضع دقائق! وقالت: «سأغادركم مبتسمة فعيشوا مبتسمين، سأترك تذكاري تذكار عروس!..»

ثم ذكرت الله وذكّرتهم به، وقالت: «أشهد أن لا إله إلا الله». وكررتها عشراً وتملأتْ روحها بالكلمة التي فيها نور السماوات والأرض، ونطقت من حقيقة قلبها بالاسم الأعظم الذي يجعل النفس منيرة تتلألأ حتى وهي في أحزانها.

ثم استقبلت خالق الرحمة في الآباء والأمهات! وفي مثل إشارة وداع من مسافر انبعث به القطار، ألقت اليهم تحية من ابتسامتها وأسلمت الروح!.

٤

يا لعجائب القدر! مَشيْنا في جنازة العروس التي تزف إلى قبرها طاهرة كالطفلة ولم يبارك لها أحد! فلما جاوزنا الدار إلا قليلاً حتى أبصرت على حائط في الطريق إعلاناً قديماً بالخط الكبير الذي يصبح للأعين؛ إعلاناً قديماً عن (رواية) هذا هو اسمها: «مبروك. . !».

واخترقنا المدينة وأنا أنظر وأتقصى، فلم أر هذا الإعلان مرة أخرى! واخترقنا المدينة كلها، فلما انقطع العمران وأشرفنا على المقبرة، إذا آخر حائط عليه الإعلان: «مبروك. . !»


واحة الكتب

الصّورة الأخرى



الأديبُ الكبير
محمّد المجذوب

الصورة الأخرى

الاديب الكبير:
محمد المجذوب

لم استغرب زيارته، لأنها ليست الأولى، ولعلها لا تكون الأخيرة. فالرجل من أبناء بلدي الأول ـ طرطوس ـ وقد عرفته منذ كان عاملاً في مزارع الآغا علي، ينقل نتاج مزارعه الكثيرة إلى السوق في تلك العربة التي قلما رُئِيَ منفصلاً عنها، حتى باتت فرقعة سوطه فوق عنق البغل الذي يجرها. فارقاً مميزاً يعرفه به سامعوه من قبل أن يطل عليهم..

وقد اعتاد معاودة الحج في كل موسم منذ عدة سنوات.. ولا ينسى أن يجدد صلته بي كل مرة قدم فيها لزيارة المسجد النبوي.. أثناء مروره إلى البلد الحرام، أو عودته منه في الطريق إلى الشام.

ولا أنسى كذلك أن أستوضحه عن أحوال بلده الذي فارقته قبل أربع وعشرين سنة، وعن مصير

بعض الناس، وبخاصة الذين كان يعمل في خدمتهم، فيتبسط في الجواب بما يوقظ الذكر، ويثير العبر.. ولاسيما بالنسبة إلى الآغا، الذي أخبرني أنه ملازم بيته منذ قيام الحكم الذي جرده من معظم أملاكه..

وقال زائري وهو يعيد كأس الشراب إلى المنضد: الآغا يسلم عليك.. وسرعان ما ردتني هذه العبارة إلى حديث الموسم الماضي، فوصلت ما بين المناسبتين، ولم أتمالك أن أسأله : أو لا يزال حبيس بيته؟.. فأجاب: لأول مرة منذ عشر سنين يغادر منزله.. ولكن.. إلى الحج..

وأرسل كلماته الأخيرة في تقطع كأنه يختبر أثرها في نفسي.. فلم أتمالك أن صحت: إلى الحج؟!.. وأردف ببساطته المألوفة: إلى الحج، وهو رفيقنا، وينزل معنا على مقربة من المسجد النبوي.. وقد حملني تحياته إليك.. وأنبأني أنه يود القيام بزيارتك لولا الإرهاق الذي يعانيه..

وما أدري كيف استطاعت هذه العبارات أن تصرفني عن متابعة الحديث لأدع لبصري أن يتأمل

أناملي وهي تحرك القلم على الورقة التي كنت قد بسطتها على مكتبي، دون أن أخط به شيئاً يقرأ..

لقد وجدتني فجأة تلقاء ألواح شتى من صور لا أعلم أين كانت تختبىء. ومن أين جعلت تتسرب..

*** * ***

بدأ ذلك بنهاية الحرب العالمية الأولى، يوم وطئت أقدام الفرنسيين شاطىء طرطوس الذي طالما تطلعوا إلى اقتحامه، وكثيرا ما حاولوا التسلل إليه، من أرواد التي استطاعوا أن يفرضوا سلطانهم عليها منذ بداية الحرب، فتردهم بنادق الجنود الذين عهد إليهم بحراسته، حتى ليصبغوا الأمواج بدمائهم، على الرغم من تفوقهم على هؤلاء الحراس بالحديث من الأسلحة التي ما كان جنود الدولة العثمانية ليحلموا بامتلاكها، إلا أن سقوط الجبهة التركية بعد انهيار حلفائها من الألمان، قد فتح الطريق أمام الفرنسيين، فتدفقوا على الشواطىء الشامية وما وراءها كالوباء الكاسح..

وكان ذلك منعطفاً جديداً في حياة الشام كلها،

وبخاصة طرطوس، تلك البُلَيْدَة الساذجة، التي تأخرت عن ركب الحياة منذ قرون، فلم يبق من آثار الحضارة سوى الأطلال التي تمتزج فيها مخلفات الفينيقيين بأسوار الصليبيين، لترسم الأهمية التاريخية التي يمثلها هذا الثغر، مع الجزيرة المقابلة له، في نظر هؤلاء وأولئك.

كانت طفرة واسعة تلك النقلة التي واجهتها طرطوس من خلال ذلك الاحتلال.. فليس بالأمر السهل أن يقفز الناس من نطاق الحرمان والجوع وأزيز القذائف الهابطة عليهم من قبل الزوارق الفرنسية بين الحين والحين.. إلى منطلقات الرخاء والعمل والمشاهد الاجتماعية الجديدة التي حملها إليهم ذلك الاحتلال..

لقد شرع كل شيء يتغير..

هذه الفرق الراقصة.. من أين سقطت على طرطوس، فلا تكاد تودع واحدة حتى تستقبل الأخرى!..

هذه الخيارات.. كيف برزت هنا وهناك.. وأين كانت من قبل!..

أمن هنا إذ كان ذلك الشقي المسكين (يوسف الكعاك) يحصل على زاده من الخمر عصر كل يوم، فلا يزال به حتى يفقده الوعي، فيتراكض إليه الصغار يرجمونه بالحجارة حتى يلقي بنفسه في البحر؟!

ولكن عهد الكعاك هذا قد انطوى إلى غير رجعة، وها هي ذي قطعان الشباب الفارغ من أبناء الأغوات وأشياعهم ينطلقون وراء هذه المفاتن دونما رادع ولا زاجر..

* * *

ويتركز بصري من خلال هاتيك الصور على ذلك الفتى الذي كانت فورته الصاخبة في هذا المسلك سبباً في جر الكثير من أشباهه إليه..

لقد أقبل هؤلاء في اندفاع ضرير على ممارسة كل ما كان يعد من المنكرات في نظر آبائهم، حتى المخدرات التي لم يسمع بها الناس في هذا البلد قط قد اتخذوها عملاً يومياً، يجتمعون عليه في الدور أو الحقول، فإذا ما أخذتهم الغمرة انطلقوا في الشوارع

يعربدون ويصخبون، دون أن يجرؤ أحد على معارضتهم أو نصيحتهم.. وسرعان ما ألف السكان هذا التصرف.. حتى بات من المغريات التي تستهوي المراهقين من أبناء الفقراء والأغنياء على السواء..

وها هم أولاء.. إني لألمح طيوفهم من وراء السنين؟!..

شباب يستبيحون كل شيء في سبيل هذه المغويات.. حتى بيع المأمول من تركات آبائهم الذين لم يموتوا بعد..

مرابون ظماء يلهثون وراء هؤلاء، ليمدوهم بكل ما يعوزهم، مقابل توقيعهم على سندات بيضاء يملئونها بما يشاؤون..

أغرار يتنافسون على التفاهات، حتى ليشغل أحدهم دخينة الراقصة بإحراق ورقة الخمسين جنيها، وهو يعلم أو لا يعلم أن الجنيه الواحد يفوق قيمة الدينار الذهبي!..

ثم.. ماذا؟!..

ثم هذا الفتى..

لقد مات والده المزارع المتواضع.. فقبض على ثروته كلها.. وفرض وصايته على ورثائها جميعاً، فله أن يفعل بها ما يشاء..

لم يكن الفتى غبياً.. ولكنه وضع كل طاقاته في خدمة الشيطان..

لقد تعلم من تجاربه اليومية أن للمال سلطانه المطلق، به يحقق متعته، وبه يسيطر على شركائه في هذه المتع.. وبه يسخر قوة المسئولين عن الأمن لحماية كل ما يمكن أن يقوم به من عدوان.

وها هو ذا يبسط يديه على الكثير من العقارات التي تجاور أملاكهم.. والويل لأصحابها إذا هم اعترضوا سبيله..

ولكن أبناء طيارة وحدهم يرفضون سلطانه على أملاكهم.. وها هم أولاء في ساحة البلد، يصرخون بالرفض.. على الرغم من العصيّ التي تصبها عليهم أيدي المرتزقة، الذين استأجرهم الآغا لهذا الغرض..

وما أهوله منظراً.. ذلك الذي أشاهده في هذه الساحة!..

إنه طوني اللبناني، الذي جاء به الآغا خصيصاً لمثل هذه الملحمة.. إنه ليشهر مسدسيه بكلتا يديه، ويصوبها نحو هؤلاء، الذين جرؤوا على التشبث بحقهم في أملاكهم التي يريدها صاحبه!..

وما أغربه مشهداً.. أن يستمر هؤلاء الرافضون في تظاهرتهم لا يصدهم وقع العصيّ، ولا يخفت أصواتهم قرب المسدسات من صدورهم..

* * *

وبغتة ينقطع شريط هذه التصورات لأستمع إلى صوت زائري وهو يقول:

إن الطرطوسيين يترقبون زيارتك كما عودتهم في كل موسم.. وإنهم لمجتمعون كلهم في بناء واحد قريباً من باب السلام..

قلت: تلك فرصة طيبة لرؤيتهم والاطمئنان على أحوالهم..

ومضيت بزائري إلى السيارة ليدلني على مقر القوم.

وفي غرفة بسيطة وجدت الرجل الذي أثار ذكرياتي فقفز بي فوق حواجز نصف قرن من الزمان..

كان مجتمعاً على أحد المفارش المطاطية، وقد ألقى عليه أحد الأغطية فلم يبد لي سوى وجهه، الذي لا يبرح محتفظاً بملامحه الفارقة على الرغم من أعباء الثمانين، عيناه الواسعتان الشهلاوان، وبشرته البيضاء الوردية، وأنفه الذي يتميز بشكله الأقنى سائر أبناء أبيه، ثم جاء صوته الذي انطلق يرحب بي في نبرته التي تمزج الخشونة بالنعومة..

وحاول أن ينهض على قدميه وهو يرد تحيتي بأحسن منها، فأبيت عليه، وأسرعت للجلوس بجانبه.. وجعل يسمي لي من معه من أهله.. وشد ما أسعدني منظر زوجه، التي كانت أنموذج الترف في طرطوس، وقد احتوتها الشيخوخة، وأكبت على خدمته تمسح وجهه، وتقدم إليه القهوة، وتصلح وضع الوسادة وراءه..

حتى شعره لم يختلف على منظره، إلا استطالته أكثر مما ألفت، وإلا لونه الذي استقر على البياض.. وحتى إهماله إياه على هذه الصورة التي تواجه عيني، لم يكن جديداً عليّ، فما أذكر أني رأيته قط معنياً بترجيله وتصفيفه كما يفعل أقرانه.

ولعل هذه هي الميزة الوحيدة التي ورثها من طبيعة والده، الذي كثيراً ما كنت أشاهده جالساً على حافة الرصيف هنا أو هناك، حيث وجد حاجة للجلوس مع ذوي العلاقة به، فإذا ما فرغ من أمرهم نهض ونهضوا ينفضون سراويلهم من آثار التراب.. وها أنذا أراه الآن على الطريقة نفسها التي لم يستطع عنها فكاكاً حتى أيام قوته، يرسل نفسه على سجيتها، فلا تصنع ولا تكلف.

وأشعل الدخينة من عقب أختها، وغلبه السعال ثم مسح فمه بالمنديل الورقي، وجعل يقول وهو يشير إلى دخينته الملتهبة: إنها الوحيدة التي بقيت من أوزار الماضي..

قلت: ولعل الله يريحك منها أيضا..

وتساءلت في نفسي: أحقاً لم يستبق من أوزار

الماضي سوى هذه الدخينة؟. . وهل يعقل أن يفارق الحشيش، وهو الذي به عرف، وعنه انتشر في طرطوس. .

ورأيت صدره يرتفع وينخفض، وهو يرسل مثل الحشرجة المتقطعة. . ومع ذلك لا ينفك يرفده بالدخان الذي يعود إلى امتصاصه بين الفينة والفينة. .

ودعوته ومَنْ معه للغداء فاعتذروا. . فلم يبق إلا أن أحملهم بالسيارة لأمر بهم على المشاهد التي تتصل بتاريخ الإسلام. . وساعدته زوجه الوفية حتى استقر على المقعد المجاور لي. . ومن ثم انطلقت بهم نحو أحد، فسلع، فالمساجد السبعة، فبئر رومة. . حتى انتهينا إلى مسجد قباء الذي تعدل الصلاة فيه عمرة. . وكنت أقص عليهم ذكرى كل واحدة من هذه البقاع الناطقة بأنباء الوحي والمجد. .

وكان الوقت قد قارب الزوال. . وأوشك الآذان أن يرتفع لصلاة الظهر. عندما وقفت بهم مقابل باب عمر من المسجد النبوي. .

وهبطت النسوة الثلاث من المقعد الخلفي، ثم أقبلن نحو الرجل يساعدنه على النزول.. وكأنه كان في معزل عما حوله تماماً، فما إن فتح له الباب حتى تنبه إلى شأنه، فنظر إليّ بعينين مغرورقتين، وجعل يتمتم بكلمات الشكر، في لهجة لم يستطع تصفيتها من وهج الانفعال، ثم قال وكأنما يخاطب نفسه: ما أكثر ذنوبي.. وما أثقلها من ذنوب!!..

وأطرق قليلاً ثم تابع: ترى... هل لمثلي من أمل بعفو الله؟!..

وكدت أقول له: لابد أولاً من رد المظالم إلى أهلها..

ولكني تذكرت أن الاشتراكية قد التهمت كل شيء.. فلم تدع لمثله حلالاً ولا حراماً يتسع لأداء الحقوق..

وسرعان ما وثبت إلى ذهني هنا تلك الصورة الأخرى لهذا الرجل.. صورته وهو يوزع على فقراء بلده حصصهم من الزيت، في كل موسم يطل عليه من خلال الغابات الواسعة التي يسيطر عليها من حقول الزيتون. فلا يتصرف بشيء منها قبل أن ينال

كل محروم نصيبه من ذلك الخير.. فلم أتمالك أن آخذ بيده أشق له الطريق إلى المسجد، وأنا أتلو على مسمعه قول الله: ﴿**قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله..**﴾ (الزمر: ٥٣)..


واحة الكتب

اللطمة



الأديب الدكتور
عبدالحي الفرماوي

اللطمــة!!

الاديب الدكتور:
عبدالحي الفرماوي

. . . ودخلت حبيبــة بيت أبيهــا، ثم أجهشت بـالبكـاء. والتف حـولهـا كـل من بـالـدار والجميـع يتساءلون:

مـا لذي حـدث لها؟ ويلحـون عليهـا في معـرفـة سبب بكائها، ولكنها تزداد بكاء. .

وتقول الأم: دعوها حتى تستريح، وتناولها قدحـاً من شراب ساخن أعدته لها فور دخولها البيت.

وتتنـاول حبيبة من أمهـا القـدح، ويخيم الصمت على الجميع وهم يرقبونها وهي تحتسي مشروبها. .

والكــل يضرب الأخـماس في الأســداس، عـما عساه أن يكون قد حدث لها.

فالأم: قد انصرفت بذهنها إلى ذلك اليوم البعيـد

الذي أقبل عليها فيه زوجها «زيد بن خارجة» وهو يتهلل بشراً وفرحاً ويخبرهم برغبة هذا الفتى الخزرجي الثري - سعد بن الربيع - في الزواج من ابنتهما حبيبة، وتفرح الأم فرحاً شديداً، فهذا الفتى هو من أغنى أغنياء المدينة، وسوف يكفل لابنتها حياة هنيئة ويحقق لها كل ما تصبو إليه.

وتسترجع الذكريات عن شهامته ورجولته التي كان يعرفها عنه كل من يعرفه..

إذن فهو العريس المطلوب، وهو الرجل المرغوب، ثم تتذكر: كم أنفق وينفق على ابنتها دون بخل، وكيف يعاشرها بكل معروف..

وتنتبه من خواطرها: وتنظر إلى ابنتها وهي تحتسي المشروب الذي أعدته لها، ثم ترتجف فجأة وهي تفتش في أفكارها عما يكون سبب بكاء ابنتها - ترتجف فجأة - حين يخطر على بالها: أن يكون سعد قد طلق ابنتها فتقوم واقفة وكأنها تنفض عن نفسها هذا الخاطر السيء، وهي تقول لابنتها: أكملي شرب القدح حتى أصب لك غيره.

أما الأب: فيعود بذاكرته إلى تلك الليلة التي

يعلمها كل المسلمين، والتي بايع فيها جماعة الأنصار الرسول ﷺ عند العقبة، والتي تم فيها اختيار الإثني عشر نقيباً وكان منهم.. «سعد بن الربيع»، زوج ابنته هذه..

وتذكر المرات العديدة التي كان يزور فيها ابنته ويوصيها بزوجها خيراً، لما يعلم من مكانته عند رسول الله، ولما يعلم من طبع ابنته الذي فيه بعض الحدة.

ثم سرح مع خواطره كأنه يقول: ياويلي إن كانت ابنتي قد أغضبت نقيب رسول الله ﷺ!!..

وكان باقي أفراد الأسرة يسرحون في خواطرهم كذلك، يلفهم الصمت، ويجمعهم الترقب، ويخيم عليهم القلق، وتشدهم الرغبة لمعرفة سر حضور حبيبة في هذه اللحظة من بيت زوجها، على هذا النحو الباكي..

والتفت إليها الجميع: حين اخترق سكون هذا الصمت الثقيل قولها: ياأبت!!

فأجاب الأب بلهفة وحنان:

نعم يابنتي!!

قالت جبيبة:
أنا لن أعود إلى سعد، وأرجو أن لا تعيدوني إليه.

وتراقص القلق على وجوه الجميع، وتزاحمت الأسئلة الحيرىٰ على ألسنتهم، التي انفكت عقدتها حينما نطقت حبيبة مقالتها هذه.

ونطق الجميع في صوت واحد:
لماذا؟؟؟
ما الذي حدث؟؟

وسبقت الأم الجميع في لهفتها، إذ قالت في مرارة مفعمة باليأس.

أحدث طلاق يابنتي؟..
فأجابت ابنتها: لا يأماه..

وانفرجت أسارير الأم، وكأن كابوساً قد انزاح عن صدرها.

وهنا قال الأب:
إذاً فهي العادة، لعلك ازددت حدة علىٰ زوجك، وارتفعت بينكما درجة النزاع، وأحسبك لم

تتحكمي في أعصابك، وتتمالكي هدوءك، مما أدى بك إلى الخطأ في حق زوجك كعادتك. .

وقبل أن تجيب الابنة على أبيها، أو ترفع إليه عينيها، قالت الأم لزوجها مالك أيها الرجل، دائماً تتهمها ـ حتى قبل أن تعرف ماذا حدث ـ بأنها هي المخطئة؟؟. .

ثم أضافت تدافع عن ابنتها قائلة:

إن ابنتي لا تخطيء، وإذا ما أخطأت يكون هو الذي دفعها إلى ذلك.

وهنا ينبري زيد قائلاً لزوجته:

اسمعي أيتها الأم العاقلة: إن صلاح البنت في حياتها الزوجية، وفسادها كذلك ينبع من موقف أمها بجوارها في هذه اللحظات، ثم أنت تعرفين جيداً أن ابنتك كثيرة الشجار مع زوجها، دائمة النشوز عليه، وخلق النكد في أوقات صفائه.

ثم يعود لهدوئه وتكتسي نبراته لهجة وقورة، يشع منها الصدق، ويفوح منها أريج الطهارة النبوية ويقول:

يقول الحبيب المصطفى: «ثلاثة لا تجاوز صلاتهم آذانهم: العبد الآبق حتى يرجع، وامرأة باتت وزوجها عليها ساخط، وإمام قوم وهم له كارهون» رواه الترمذي..

ثم يتجه إلى ابنته ويقول: ولا أحب ياابنتي أن يكون زوجك عليك دائماً ساخطاً.

«إن المرأة إذا خرجت من بيتها وزوجها كاره لعنها كل ملك في السماء، وكل شيء مرت عليه من الجن والإنس حتى ترجع» رواه الطبراني في الأوسط.

وهنا تنهمر الدموع من عيني الأم، ثم تخفض برأسها إلى الأرض، وتقول ياويلي: إن كانت ابنتي قد فعلت ما يغضب زوجها ويغضب الله ورسوله!!

وهنا ترد حبيبة قائلة:

لا يا أماه، لم أفعل ما يغضب الله ورسوله..

ويرد الجميع: ماذا فعلت إذاً؟..

وهنا أجهشت حبيبة بالبكاء مرة ثانية، وقالت:

إن سعد قد لطمني على وجهي!!.

وعلت الدهشة وجوه الجميع..

وقالت الأم لزوجها:

ها.. قد صدق قولي يازيد؟؟.

إن ابنتي قد ضربها زوجها.. وأنت تدافع عنه؟ أخبرني ماذا تفعل الآن؟

وهنا استغرق زيد في التفكير، إذ أنه لم يكن يخطر بباله أن يحدث هذا، ولكنه الآن حدث..

فماذا يفعل؟

وما هو السبب الذي دفع بسعد زوجها إلىٰ هذا؟

أيأخذها معه إلى بيت زوجها ويعيدها إليه مرة ثانية؟

أم يحجزها عن العودة إليه حتىٰ يحضر سعد إليها؟

أيطلب من زوجها طلاقها بسبب ذلك؟

أم يتركها دون طلاق ويعاود زوجها ضربها؟

ماذا يفعل؟.

ليهديء من روع ابنته؟

ويطمئن الأم القلقة؟

ويضمن في نفس الوقت سعادة ابنته؟

أسئلة حيــرىٰ، ودوامـة تضيق وتتســع، وتعــود لتضيق وتتسع.

ويفيق من هذه الحيرة، ويخـرج من هذه الـدوامة بقرار أراح الجميع، وأنقذهم من هذه البلبلة.

ويقول:

ســوف أذهب إلى رســول الله ﷺ لأشكــو إليــه سعداً..

ثم يتجه إلى حبيبة، ويقول لها:

قومي معي إلى النبي ﷺ.

وتـرتدي حبيبـة عباءتهـا، وتخـرج، وتسـير خلف والدها، حيث المرشد، والمـوجه والنـاصح الـذي لا يترك أحد من المسلمين مشورته، ولا يستغني أحدهم عن توجيهاته ولا يخالفون جميعاً نصائحه.

ويتقـدم زيد من مجلس النبي ﷺ، ويحكي لـه ما حدث، ويختم كلامه بقوله:

«وهكذا أفرشته كريمتي فلطمها».

ويـطرق النبي ﷺ لحـظة صـامتـاً مفكـراً، وهـو

يبحث عن حل، حتىٰ يجد في القصاص الحل لهذه المشكلة.

وزيد وحبيبة: صامتان في خشوع ورهبة، ولهفة لما سيقول.

ويخرجهم عليه الصلاة والسلام من لهفتهم، وقلقهم، وحيرتهم، حينما يتجه إلى زيد ويقول له:

يازيد:

فيجيب زيد والسعادة تملأ جوانبه ـ حيث حظي بشرف خطابة عليه الصلاة والسلام ـ قائلاً:

نعم يارسول الله.

فيقول عليه الصلاة والسلام:

لتقتص ابنتك من زوجها..

ولا يناقش زيد، ولا تناقش حبيبة، ويخرج زيد، وتخرج معه حبيبة، مطرقين، صامتين، حائرين..

الأب: لا يتصور كيف تقتص ابنته من زوجها علىٰ هذا النحو، وتدوم الحياة بينهما هنية بعد ذلك!!..

وحبيبة لا تتصور ـ وإن كانت تحتد كثيراً على زوجها ـ أن ترفع يدها لتلطمه، فهو زوجها وهو

حبيبها . .

لقد أتيا منذ قليل إلى النبي ﷺ هروباً من الحيرة، ولقد خرجا الآن تلفهما - أكثر من ذي قبل - نفس الحيرة. ولكنها فتوى الرسول ﷺ!!

وجرجرا أرجلهما في تثاقل وذهول، وخرجا.

وحينئذ . .!!

نزل القرآن!!

لينقذهما من الحيرة وهذه البلبلة . .

إذ نزل جبريل على محمد ﷺ بهذة الآية الكريمة:

﴿الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهم سبيلاً إن الله كان علياً كبيراً﴾.

وهنا ينادي رسول الله ﷺ على زيد وابنته، ويتلو عليهما ما نزل لهما من السماء.

ثم يقول:

أردنا أمراً، وأراد الله غيره، وما أراده الله فهو خير.

وهنا تنزاح هذه الغمة، وتحل هذه المشكلة، فتستريح النفوس، وتهدأ القلوب ويعود الأب وابنته إلى البيت، وتعلم أمها بما حدث فتقول: آمنا بالله ورسوله وأطعنا..

وتقبل على ابنتها وتقول لها:

لقد تذكرت الآن قول عائشة رضي الله عنها:

«يامعشر النساء لو تعلمن بحق أزواجكن عليكن لجعلت المرأة منكن، تمسح الغبار عن قدمي زوجها بخد وجهها».

قومي يابنتي واذهبي لزوجك، واستغفريه وأحسني عشرته.

ويذهب الجميع مع حبيبة إلى بيت سعد بن الربيع، وهم فرحون بما نزل فيهم من القرآن، وسعداء بعودة البهجة إلى هذا البيت..


واحة الكتب

الأرملة الساحرة



الأديب الكبير
نجيب الكيلاني

الأرملة الساحرة

الاديب الكبير الاستاذ:
نجيب الكيلاني

لم يكن يدري سر الانقلاب العجيب الذي يستولي على مشاعره وهو يجلس إلى جوارها، ولم يستطع أن يفسر تلك اللهفة الحارقة التي تدفعه إلى بيتها الحقير، ذلك البيت الذي يجثم لدى أقدام منزله الشاهق الناصع البياض.. كانت كلمات «هنداوية» تنساب إلى أذنيه كالسحر ونظرتها تتسلل إلى روحه فتشعلها، وتتحسس الطريق إلى قلبه فتسرع بضرباته فيبدو كأنه مراهق غرير.. على الرغم من أن «محمداً» قد بلغ الثانية والثلاثين من العمر، وتخطى سنوات المراهقة.. وخاصة أنه كان قد تزوج من «سعدية» منذ خمس سنوات، وأنجب منها ولدين جميلين..

حاول «محمد» أن يفيق إلى نفسه.. ويتدارس وضعه الحرج.. إنه زوج وأب و«سعدية» جميلة،

لكنها حرام.. حرام.. و«سعدية» زوجة فاضلة جميلة.. لكنه - في صحبتها - يعيش نهباً للملل والثورة، فلا تكاد تضحك في مداعبة إلا وينهرها ويرميها بالحمق وقلة الأدب..

وإذا ما قدّمت إليه الطعام كشَّرَ عن أنيابه وبدأ الغضب في عينيه وزعم أنها لا تعرف كيف تطهو الطعام، وأن مذاق اللقمة في فمه يثير الغثيان، وأن.. وأن.. إلى أن تنصرف عنه دامعة العينين.. جريحة الكبرياء.. حتى إذا لفّ المساء القرية، وبسط السكون رداءه على شوارعها، تسلل «محمد» كاللص إلى بيت «هنداوية» وفي حجرتها الضيقة الكالحة الجدران، الخالية الضوء.. يرتمي على حصير بال، ويجلس بالقرب منها لاهث الأنفاس.. ويلتهم أي طعام تقدمه له مهما كانت رداءته.. بل إن «هنداوية» كانت تعمد إلى تدريبه على تناول الأصناف التي تعلم أنه لا يحبها، فيقبل عليها عن طيب خاطر، ويهمس في ذهول:

- كل شيء جميل من يديك الحلوتين..

وأدركت «سعدية» بفطرتها الصادقة أن زوجها قد

أصبح رجلاً آخر.. لم يعد هو «محمد» الذي عرفته في سني الزواج الأولى.. حيث كان بيتهما يفيض بالمرح والحب والشغب الجميل، ومنذ مدة طويلة لم يحمل طفليه على ركبتيه يداعبهما أو يركبهما فوق ظهره.. ولم يعد يقهقه مثلما كان يفعل عندما يصرخ الصغير ـ وهو راكب فوق ظهره ـ قائلاً:

حا.. حا.. حتى جلبابها البلدي الشفاف الجديد، والأقراط الذهبية.. وعقد الكارم الأصفر، وخصلة الشعر التي تتدلىٰ فوق جبينها هاربة من منديل رأسها الحريري الأحمر..

كل ذلك لم يعد يثير اهتمامه أو يحظىٰ بكلمة إعجاب منه..

وذات مساء، وقد ألقى «محمد» بجسده على السرير.. وأعطاها ظهره.. هتفت في حنق:

ـ ماذا جرى لك؟..

فتمتم دون أن يلتفت إليها:

ـ أريد أن أنام..

ـ لكنك تقضي أغلب الليل متيقظاً.. وتتقلب على الجنبين وكأن سريرك من أشواك..

فانتفض قاعداً.. وقد تغيرت سحنته:

ـ وما شأنك أنت ياغبية؟..

ـ زوجتك..

فأطال إليها النظر في حقد.. ولما لم يتكلم استطردت قائلة:

ـ وأم أولادك..

ثم انفجرت باكية.. كانت تكتم في قلبها أسى بالغاً، حاولت أن تخفيه طوال تلك الأيام.. لكن ضغطه الزائد، حطم صمام الأمن.. فانهمرت دموعها، وبدت «سعدية» الجميلة ذات الكبرياء.. والتي تسير في الشارع حاملة جرتها على رأسها دون أن تعير أحداً أدنى اهتمام.. بدت امرأة مسكينة ضعيفة لا حول لها ولا قوة.. ومن بين دموعها المتسابقة أخذت تقول:

ـ أنا لم أسيء إليك.. طول عمري خادمتك يا محمد. إنك تغيرت تغيراً كبيراً.. قلبي يحدثني أن كارثة ستقع على رأسي. لقد أصابتنا عين حاسدة.. لماذا لا تخبرني بكل شيء؟ لماذا؟ دائماً أنا تحت قدميك.. لو طلبت مني أن أرمي بنفسي في البحر

لفعلت.. إن لم يكن من أجلي فمن أجل أولادك.

كان «محمد» مطرقاً في صمت، وقد آلمته دموعها وهزته كلماتها الرقيقة الوفية.. وتمنت «سعدية» في تلك اللحظات أن يهبها الله القدرة على معرفة ما يعتمل في نفسه، وقراءة ما يدور في ذهنه.. بل لعلها أرادت أن تدفع عمرها كله ثمناً لحصولها على السر الكامن وراء تصرفات رجلها.

وشردت نظراته إلى بعيد... إلى الأرملة التي ملكت قلبه... إلى نظراتها النارية التي لا تقاوم، ونبرات صوتها المفعم أنوثة وإثارة... وأدرك «محمد» أن حظه العاثر يكبله بقيود قاسية لا ترحم، قيود صنعتها أنامل امرأة ساحرة من لحم ودم وغموض.. لم يتعذب «محمد» في حياته كما تعذب في هذه اللحظات العاصفة، إن التفكير المجرد يجعل زوجه امرأة على رأسها تاج من الفضيلة والجمال، وعاطفته الحمقاء، تحيلها إلى امرأة باردة.. بليدة.. أو مجرد تحفة خزفية.. كتلك التحف التي تقبع في حجرة الضيوف في كسل وموت بعد أن فقدت بريقها وجدّتها لكثرة إِلْفَتِها.. و«محمد» بين عقله

وعـاطفته يحيـا ضائعـاً. . كالغـريق. . يتلمس بيديـه الواهنتين المرتجفتين سبيل الخلاص. . وأين الخـلاص وهو لا يرى في الأفق الأسود بارقة ضياء؟

واقترب «محمد» من زوجه، وربت على كتفهـا في حنان، واغتصب ابتسامة مرتعشة ثم همس في رقة:

ـ كل شيء يهون «يا سعدية».

ـ إلا أنت. .

ووجـد نفسه ينحني عليهـا ويطبـع عـلى جبينهـا قبلة مرتبكة ثم تمتم:

ـ إنكِ عزيزة عليّ إلى أبعد الحدود.

وابتسمت لأول مـرة، وقد تـوردت وجنتاهـا، ولم يبق من الدموع إلا ظلالها وقالت:

ـ صحيح؟

ـ ولِمَ لا؟

ـ هذا عين ما أقوله. . ليس هنا ما يباعـد بيننا، أو يغير من قلوبنا إلا الشيطان. . أم تراك مللت طـول عشرتنا؟

ـ أتظنين ذلك؟

فأرسلت تنهيدة طويلة، وقد انجـابت عن روحها

غيوم داكنة طالما أرهقتها، وابتسمت في وداعة طفل وقالت: ـ ما أشد حاجتك إلى «تحويطة» وتعويذة قوية! «الشيخ الخروبي» رجل روحاني من الطراز الأول.. كم أكون سعيدة لو ذهبت إليه غداً يا «سي محمد»؟

قال «محمد» بعد أن سعل دون حاجة إلى ذلك:

ـ لا عليك.. الله موجود.

قالها في شيء من الثقة المباغتة.. ولكن طيف «هنداوية» كان يشرق في خياله المبهور لحوحاً متحدياً يوشيه الوهج والإغراء والذكريات الحارقة.

ومع الصبح ذابت ثقته بنفسه، وعاد إليه وجومه وقلقه وبدت له «سعدية» مرة أخرى، وهي تروح وتجيء وسط الدار كالدمية الخزفية الباردة، التي لا توحي بغير الملل والضيق... وفي صلاة الجمعة بالمسجد الكبير، أخذ يستمع إلى الخطيب بنصف وعي، كان يحاول أن يغرق قلقه وسط الجماهير التي اكتظ بها المسجد.. وأن ينسى عذابه بين يدي الله.. وأن يواسي قلبه الشقي بكلمات الخطيب ذي النبرات العالية، وكان الخطيب يتحدث عن تعدد الزوجات.. وعن العدل بينهن.. ذلك الشرط

الأساسي الذي فرضه الدين لكل من أراد أن يتزوج ثانية.. وانتعشت نفسه فجأة..

وبدا «لمحمد» أن هذه أول مرة يعرف فيها أن الزواج باثنتين مباح بشرط العدل بينهما.. كان يتلهف على حل.. أي حل.. فما بالك بحل يهبط من السماء وينطق به لسان شيخ عالم؟ وشرد «محمد» عن باقي الخطبة.. لم يعد يسمع ما يقوله.. لسوف يصرخ في وجوه اللائمين والمحتجين والساخطين زاعماً أنه لم يقترف إثماً.. أجل.. لسوف يفعلها حتى يستريح.

بعد أيام تناقلت الأفواه الهامسة النبأ الغريب.. ثم تحول الهمس إلى لغط مسموع.. كلمات كثيرة حول هذا الموضوع أخذت تتناثر على جانبي الطريق:

- أيتزوج «هنداوية» ويترك «سعدية»؟

- الشيطانية سحرت له...

- إنه غضب الله الذي لا دافع له.

- مكتوب على الجبين...

- إن عيني «سعدية» تساوي مليوناً مثل «هنداوية».

ـ ألا يستحي «محمد» وعنده المال.. والجمال...
والبنون..

أما شيخ المسجد فكان يقول، وهو يلعب بحبات المسبحة:
ـ الخبيثات للخبيثين.

ولم يعد «محمد» يظهر في شوارع القرية أو طرقاتها.. لقد اختفى تماماً عن العيون داخل بيت «هنداوية» بعد زواجه منها، وجاء والد «سعدية»، ذات يوم مكفهر الوجه جامد الملامح، وكأن عار السماء والأرض قد ركبه، ثم نادى ابنته وطفليها، وأخذهم إلى بيته دون أن ينطق بكلمة واحدة... وهرولت «أم محمد» إلى بيت جارتها، فاصطدمت «بهنداوية» لدى الباب، وهتفت «هنداوية» في نبرات ممطوطة:
ـ أهلا حماتي.
غضبت «أم محمد» وأزاحتها في غيظ قائلة:
ـ أين ولدي يا عاهرة؟
وغمزت «هنداوية» بإحدى عينيها وقالت في تحد:
ـ نائم يا حبيبتي.. لقد سهرنا حتى الفجر.
قالت الأم وهي تندفع كالمجنونة:

- أين هو؟

أمسكت بها «هنداوية» في عنف، وأخذت تدفعها خارج البيت وهي تقول:

- لقد أخذته.. أصبح زوجي.. لم يرتكب إثماً.. تزوج شريف من شريفة.. أحبني وأخذني... في ذلك سعادته.. أتكرهين سعادته؟

- لكني أخاف على ولدي من جيرة الحيات.. أتطردينني!؟

وعلى صيحتها العالية تقاطر سكان الشارع نساء ورجالا وأطفالا.. عشرات العيون الفضولية تتطلع إلى الداخل باحثة عن شيء، وعشرات الأيدي امتدت تحاول أن تفرّق بين المتشاجرتين، وتعليقات كثيرة كلها تنصب على رأس «هنداوية».. وترميها بالفسوق والشيطنة وعدم الضمير..

واستيقظ «محمد» علىٰ الضجة الهائلة، وتلفت حواليه، ليس معه سوىٰ الحجرة الكالحة الجدران، والضوء الخافت، وذكريات عذاب، وثورة عارمة في الخارج تهز كيانه وتصور «أمه» بعودها القصير. ووجهها المستدير الأشقر وشعرات رأسها البيضاء

وطافت بذهنه صورة «سعدية» والطفلين، ثم سمع صوت «هنداوية» عالياً متحدياً دون حياء تكيل السباب والشتائم للجميع حتى لأمه.. الجميع في ثورة ضدها.. أهل الشارع يقفون ضدها.

وحاول «محمد» أن يستنجد بنظرات «هنداوية» النارية، ونبراتها الحنونة الدافئة، وعبيرها الذي طالما أسكره وملك لبه وهواه.. وجوها المشبع بالإغراء والإثارة.. والحب.. لكنه يشعر الآن أن كل شيء قد انطفأ وهجه وبرد.. عشرة أيام فقط كانت كفيلة بأن تحيل ثورة كيانه، وتمرد عواطفه إلى رماد.. وهذا الرماد يكاد يخنقه.. تماماً كتلك الجدران الكالحة. والضوء الخافت..

وشعر «محمد» برغبة جارفة في أن يثب إلى باب الحجرة.. ثم يقف تحت الشمس ليغتسل بالنور... لكنه لم يزل مقيداً .. ورأسه لم تزل نهباً لأفكار متصارعة.. وصوت «هنداوية» يطرق مسمعيه قوياً هادراً في شماتة.. ودون حياء:

ـ موتوا بغيظكم.. لقد أخذته على الرغم منكم.. باعكم واشتراني.

وآلمته كلمة «أخذته» . . لكأنه ألعوبة في يدها. . دبرت مؤامرتها، ثم نجحت. . وهي الآن فخورة بنصرها. . وشامتة أيضاً. . وتحاول أن تدمر من كبرياء «أمه»، وأن تتحدىٰ أهل القرية المحتشدين. . وتسخر منهم. . أيمكن أن يكون هؤلاء جميعاً علىٰ باطل، وهو و «هنداوية» على حق؟ لقد تسرّب الشك إلى نفسه، وتحطمت أحلامه المتوهجة على صخرة التجربة القصيرة العمر. . ونبرات «هنداوية» الحنونة أصبحت تزعجه، وتبعث في نفسه الضيق والملل، حتىٰ جسدها الملتهب. . كان في الليلة الفائتة أشبه ما يكون بدمية من الخزف. . أجل. . لقد انطفأ كل شيء. . انطفأ سريعاً ذات مساء في ليالي الضجر والخواء والرتابة.

واقترب «محمد» من كتلة الحشد الصاخب، فشخصت إليه الأبصار، ولم يعد يسمع لهم صدىٰ، ومن قلب السكون المطبق، انبعث صوت «أمه» دامعاً رقيقاً:

ـ يا حبيبي. . أهكذا تفعلها؟

ولم يفق إلى نفسه إلا عندما أدرك أن «أمه»

تضمه إلى صدرها وتغرق جلبابه الصوفي بالدموع، فقال في ثقة تامة:

- أنا عائد معك.

وقبل أن يثوب الحاضرون إلى رشدهم، صاحت «هنداوية»، وقد شحب وجهها:

- ماذا؟ هل جننت؟
- بل في تمام وعي.
- والمهر؟ أنسيت أنك لم تدفع مقدم الصداق ولا المتأخر؟
- لا يهم...
- يا خائن.. والنفقة أيضاً.. لسوف أمتص دمك.

ورماها «محمد» بنظرة نارية أودعها كل حقده، ولم يتكلم لكن «أمه» هتفت في زهو وسعادة:

- ألم أقل إنها حية؟

وتطلع «محمد» إلى وجوه المحتشدين.. كانت نشوة النصر والشماتة ترتسم على وجوههم.. وشعر أن هذا التأييد المطلق قد أراح ضميره كثيراً.. لكن «هنداوية» الشاحبة الوجه، المحطمة الآمال، قد أثارت في قلبه ذبالة من رثاء، وشعر بغير قليل من

العطف نحوها ، وتمتم، وهو يخطو خارج بيتها:
ـ ستأخذين حقوقك كاملة.

وانتهى المشهد العاصف على زغرودة عالية، أطلقتها إحدى الشامتات.. أما «هنداوية» فقد صفقت الباب، وارتمت خلفه وحيدة، تنشج نشيجاً دامياً.

الملائكة لا تظهر في أوربا



الأستاذ الأديب
عاطف زهران


واحة الكتب

الملائكة لا تظهر في أوروبا

الاستاذ الاديب
عاطف زهران

عاد بعد سنوات قضاها في تحصيل العلم بإحدى جامعات أوروبا، فنال إعجاب الكثيرين من حوله لذكائه واجتهاده وحصوله على شهادة جامعية من الخارج.

التف الجميع حوله يستمعون حكاياه وذكرياته في سنواته تلك التي قضاها هناك.

ولا يفتأ بين الحين والآخر يبرز إعجابه الشديد بالتقدم الحضاري الذي رآه وبنظام حياة الناس.. وبكل شيء.. مما أثار لدينا ولعاً بمشاهدة تلك البلاد ومعايشة أهلها..

مضت أيام ثم التقيت به خارجا من المسجد بعد صلاة الجمعة وبمجرد مصافحته لمحت علامات ضيق وضجر بادية على وجهه. فسرنا معاً حتى انصرف

عنا الجمع وحاولت أن أتسلل في هدوء إلى داخله لمعرفة أسباب ضيقه. فقال:

- أسمعت خطبة الجمعة جيداً؟

- نعم.

- فمارأيك في موضوعها، حديث الجن وعالمه؟

ضايقني أن يضيع الخطيب وقته وأوقات المصلين ليحدثهم عن أشياء كهذه لا تقدم ولا تؤخر، والضرر منها أكثر من الفائدة حين نشغل عقول الناس بمثل هذه الأمور، التي لا يعترف بها العلم ولا يقرها العقل...

- أي علم وأي عقل تعني؟

- العلم الذي تلقيناه هناك والذي لم يدع مجالاً إلا خاضه، ولا مسألة إلا قتلها بحثاً ودرساً.. العلم بكشوفه ومخترعاته التي يسرت للإنسان صعود القمر وغزو الفضاء وصناعة الأسلحة التي يمكن أن تبيد الأرض في إغماضة عين والذي رفع أمماً إلىٰ السماء وحطَّ أخرىٰ إلى الأرض.

- وهل درستم شيئاً عن الجن في مختبراتكم، أو قرأتم نظريات علماء الغرب في هذه المسألة؟

- لا وقت لديهم يصرفونه في هذه الأمور ولا داعي

لذلك.
ـ إن هذه مسائل عقدية لا دخل للقوم بها فعلا. فقد شغلتهم التجارب والمختبرات والنظريات والبحوث عن ذلك. أما نحن فلسنا منهم وليسوا منا. وذلك شيء يخصنا نحن ويتصل بديننا فقط. لا تجدي فيه مختبرات ولا نظريات. فهو يأتي من مصدر لا يعترفون به.
ـ أفهم من ذلك رضاك بما قاله خطيب المسجد تماما؟.
ـ لأنه لم يجيء بشيء من عنده وإنما تلا آيات قرآنية، وأحاديث شريفة.

وقد التقىٰ النبي صلى الله عليه وسلم نفراً منهم وأسمعهم القرآن الكريم فمنهم من آمن ومنهم من كفر. ومنهم الصالحون ومنهم دون ذلك.

وقد حجبهم الله عنا فبصرنا محدود له طاقات لا يتعداها. وعقولنا لها مجالات لا تتجاوزها لذا أخبرنا القرآن بأنهم يروننا من حيث لا نراهم.. لم يبد اهتماماً بكلامي ولكن كان يهز رأسه أحياناً دون أن ينطق بحرف. فسكت منتظراً كلمة منه تدعوني

إلى السير في هذه الحجج إن كان ثمة أمل في إقناعه. أو تحثني على السكوت ما دام كل منا مصراً على موقفه.

فقال:

ـ ما زلتم كما أنتم تسمعون وتؤمنون كما سمع آباؤكم وآمنوا مهما أوتي أحدكم من علم، من أجل ذلك تأخرنا وتقدم غيرنا لأننا ظللنا أسرىٰ هذه الأفكار والتقاليد الموروثة لا نملك تغييرها.

رأيت أننا متناقضان في أفكارنا ويزيد من ثقته بنفسه أنه حصل على دراسته العلمية في أوروبا بلاد الحضارة والتقدم مما غرس في نفسه ألا يؤمن إلا بما يراه ويخضع للتجربة والمختبرات.

فالهوة بيننا عميقة عمق البحار، بعيدة بعد ما بين المشرقين.

ولم أشأ أن أستمر في النقاش معه أطول من ذلك فودعته وتركت المناقشة لحين آخر.

أما هو فقد بقي خالياً بنفسه. حائراً بين اليقين والشك، بين ما يقوله الدين وما يقره العلم، بين الحقيقة والأباطيل، كان أشبه برجل مشدود بين

خيطين. كلاهما يشده لناحيته وعقله يغلي ويميل ناحية العلم فترجح كفته. ولكن ما يقوله الدين يقف حائلاً دون يقينه المطلق بما يقوله العلم ويقره. وعلى لسانه تساؤلات كثيرة خفية...

هل يؤمن بالعلم وحسب، ولا يفكر فيما بعد ذلك؟ أم يعيد النظر ليوفق بين العلم والدين؟ أم يلغي ما تلقاه من علم وقضىٰ أغلىٰ سنوات عمره في تحصيله؟ وساعتها يكون هو وخطيب المسجد وجميع أهل القرية سواء؟ أين الخطأ وأين الصواب..؟ من المحق ومن المبطل..؟

دخل حجرة نومه بغية الهرب من هذه الحالة التي يمر بها أو ليستريح فطاردته هذه الهواجس حتىٰ أطارت النوم من الغرفة كلها. وظل هو يسبح في ظلمات بعضها فوق بعض. آملاً أن يصل إلى قرار، يسرد الدليل تلو الآخر، ويرد بالبرهان على البرهان.

أحياناً تتحرك قدماه في ظلمة وعقله يتخبط في ظلمات أشد وأحياناً يأوي إلىٰ فراشه الوثير ضاغطاً على عينيه لإغماضها عنوة فلا يستجيبان لعنفه ويحملقان في الظلام بحثاً عن النور.

فوجىء بمؤذن الفجر يخترق صوتـه النوافـذ والستر ليقرع أذنيه فيخـرج من ظلمته وحيرته وقلقـه وأرقه. . نفض كل ذلك وخرج إلى الصلاة.

ورأيت عليـه آثار السهـر فتيقنت أنه قضىٰ ليلتـه يتقلب بـين جمر الحـيرة ولهيبهـا وأنـه لن يتمكن من النـوم حتى يسـتريـح فصحبتـه إلىٰ منــزلي لنحتسي كوبين من الحليب الطازج وأنا غـير عازم عـلى فتح باب المناقشة. ففاتحني قائلاً:

ـ فكرت في حديثنا بالأمس. ولم أستطع الوصول إلىٰ حل وسط.

ـ اسمع يا أخي إن رضـاك بالعلم وحـده سيجعلك تــرفض أمـوراً كثــيرة هي من صميم الإيمــان ومن المعلوم من الـدين بـالضرورة. من السمعيــات التي أخـذنـاهــا عن القـرآن وعن النبي صــلى الله عليـه وسلم. مع أن العلم نفسه يعترف بأمور لا نراها. .

انتبه لهذه العبارة وقال:

ـ ماذا تقصد بذلك؟

ـ أنت رجل عاقل حي. هل في ذلك شك؟

ـ نعم. ولكن ماذا تريد أن تقول؟

ـ أقصد أنك تعترف بعقلك ولا تدري مكانه ولكنـه

كما تعترف بأن روحاً تسري بجسدك دون أن تراها أو تعرف ما هي ولا كيف هي ولا أين هي. فهل عدم رؤيتهما يعني عدم وجودهما؟

ثم إن هناك ميكروبات وكائنات أخرى لا تدركها العين المجردة ومع ذلك يعترف العلم بها بعد اكتشاف العدسات التي تكبِّر آلاف المرات، وإذا أنكرتُ وجودها لأنني لم أرها سخرت مني

واتهمتني بالتخلف، والكهرباء لا نراها تسري في أسلاكها. ولكنا نُقِرُّ بها.. وغير ذلك كثير مما لا يحصى من أشياء نقر بوجودها ولا نراها.. وناولته مصحفاً كان أمامنا وفتحته وطلبت منه أن يرتل ليسمعني فنعيد بذلك أياماً سالفة جمعتنا حول كتاب الله نقرؤه ونتدارسه.

وكان حسن الترتيل عذب الصوت فاستفتح بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ألم. ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين. الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون. والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون. أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾.

وهنا رأيته ينظر اليّ نظرة من ذاق برد اليقين بعد أن اصطلى بنيران الشك.

وتثاءب وقال:

دعني لأستريح وغداً موعدنا مع كتاب الله، ونوره المبين.

دجاجة على الفحم



الأستاذ الأديب
محمود مفلح


واحة الكتب

دجاجة على الفحم

الأستاذ الأديب:
محمود مفلح

للمرة الثانية يسافر الى المدينة، الى مشفى المدينة... في المرة الأولى لم يجد الطبيب المختص، قالوا له «راجعنا السبت القادم»، رجع يترنح من الألم، منذ السابعة صباحاً حمل حقيبته الجلدية الباهتة، وودع صديقه أبا خالد ووقف على الطريق الترابي ينتظر قدوم سيارة متجهة إلى المدينة..

بعد ساعة وصل، وقف في الطابور، قال له الطبيب: يجب أن تحلل، نتيجة التحليل بعد ثلاثة أيام، رجع إلى القرية ثانية والألم لا يغادره لحظة استقبله أبو خالد...

- خير إن شاء الله...

- طلبوا مني تحليل الدم.. والله أنا خائف ياصديقي...

- توكل على الله يارجل ماشاء الله وجهك يطفح

بالعافية.

- قم... قم.

- اغسل يديك لنأكل... صاحت عصافير بطني...

- لم أجد أشهى من طعامك ياأباخالد.. سيدة بيت تعجز عنه... صحة وعافية... كُلْ والباقي على الله سبحانه...

ثلاث ليال مرت ولم ينم، يضرب أخماساً بأسداس، يعاني آلاماً لا تطاق.. ماذا لو حدث لي شيء في هذه الغربة.. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. أطلت شمس اليوم الرابع... حمل حقيبته الجلدية الصغيرة من جديد.. كانت فيها نقوده، هو لا يضع نقوده في المصرف، حقيبته هذه هي مصرفه الوحيد... إنها لا تلفت النظر.. تتحرك كلما تحرك... وفي الليل تأوي مثله إلى النوم، يدسها تحت المخدة.. بعد أن يقرأ ما شاء الله أن يقرأ... قبل أن ينام...

وصل المشفى كان الصباح ربيعا منعشا والنسمات الرخية من جهة الشرق توقظ الحياة في جسده، وسفوح الجبال التي تحتضن المدينة مكسوة

بالخضرة.. المشفى كالعادة تعج بالمرضى، أكثرهم من البدو الذين مازالوا يشربون من مياه الآبار الملوثة وهم يغمضون عيونهم ويقولون لا يموت الواحد حتى يحين أجله، ومع ذلك يؤمون المشفى.. يجدون فيها أرضا تلمع ومن حولها أشجار وورود ومقاعد خشبية نظيفة يضعون عليها طعامهم ويأكلون...

- أنت محتاج إلى عملية مستعجلة ياأستاذ؟

قالها الطبيب بعد أن دقق النظر في نتيجة التحليل، من وراء نظارته ذات الدوائر الكثيرة... خذ هذه الاستمارة.. واملأها..

- الأسم: عبد الغفار محمد سالم
- العمر: ٥٥ عاما

الجنسية: عربي احترقت أرضه واغبرت سماؤه

موجز عن حياته: ماضٍ ضاع بين المقاعد والطباشير والأحلام المنكوسة وحاضر أضيع ومستقبل بظهر الغيب ولكنه لا يخرج عن دائرة الطباشير العربية.

- الأهلية: متزوج وله عشرة أبناء، كبيرهم يمتهن

التسكع في الشوارع الخلفية في أقصىٰ الشمال حيث الشتاء الذي يئن تحت وطأة صقيع بلا نار ولا رفيق له سوى سيجارته ينتظر آخر الشهر كي ينتصب منذ الفجر أمام مبنى البريد ليتسلم الرسالة المسجلة من الغريب فيها «شيك» يحمل مصروف الكتيبة أي العائلة الكريمة!!!، يسرق نصفه لسجائره وربطات عنقه وأصبغة شعره المسبسب ومغامراته الخائبة... وصغيرهم لم يزل صديقا لثدي أمه.. في أسفل الاستمارة التوقيع - ولكن التوقيع على ماذا؟!

الطبيب الجراح غير مسؤول في حال الوفاة...!!! حال؟! كأنه لأول مرة يسمعها.. توقف قليلا، دعك جبينه، صوب إلى الطبيب نظرات بلهاء.

- ماذا بك ياأستاذ لماذا لم توقع؟! عمليتك لا تحتمل التأجيل.. ثم أردف.. ثم إنها بسيطة لا تستأهل كل هذا التردد..

- لماذا إذن هذه الرصاصة... في حال الوفاة؟! هل ساقني القدر من أقصى الشمال لأعانق مصيري هنا.. على تخوم المجهول.. إن لهجة الطبيب لا

تحمل قدراً مقنعا من الصدق، وهو يعرف كيف يخدر شعور المريض قبل أن يخدر جسده. . لن أوقع. .

ـ ياأستاذ ليس لدينا وقت للانتظار، المرضى كثيرون، إما أن توقع وإما أن تنصرف بلا علاج. علاجك الوحيد هو العملية الجراحية!

. . . همَّ أن يقول نعم سأنصرف ولكنه تذكر الآلام الكاوية التي تخترق جسده الهزيل كل ليلة تناول القلم وبيد مرتعشة كتب اسمه الصريح ووقع تحته. . .

* * *

تناول الطبيب الاستمارة، دقق في المعلومات جيداً أشار إليه.

ـ مع الممرضة من فضلك. وقد راحت تصعد السلم إلى الطابق الثاني دون أن تنظر إليه. . .

ـ إلى إين ياأنت

ـ لم تلفت إليه.

أعاد السؤال بإنكليزية عرجاء، نظرت إليه وابتسمت، ، دخلت غرفة مظلمة، ضغطت على زر الكهرباء . كانت أكداس من الملابس مرصوصة

فوق بعضها بانتظام، ناولته إزاراً سماويا، قالت: بعربية مكسرة.. «أنت بخلع كلو كلو.. بلبس هادا..» ثم خرجت...

ولكن «كيف أنا بخلع ملابس كلو كلو..!؟» هل من المعقول أن أرتدي هذا الكفن الأزرق؟ أول الغيث قطرة ياعبد الغفار.. إنها الخطوة الأولى إلى النهاية المحتومة... ماذا لو رأتني «أم العيال» على هذه الحال.. رجعت الممرضة بابتسامتها التي خرجت فيها:

مدت يدها إلى خزانة قريبة أخرجت «طاقية» زرقاء أيضا وأمرته أن يضعها على رأسه ثم أشارت إليه أن يتبعها..

دخلت غرفة بها ثلاثة أسرة وأشارت إلى سرير قرب الباب. هذا سريرك.. رقم ٢٥ اسمك الآن المريض رقم ٢٥...!!

ماذا حل بك اليوم ياعبد الغفار، حتى اسمك هرب منك...

لو مت لقالوا مات سرير رقم ٢٥.. الناس هنا غدت أرقاماً.. إن أحداً في هذه البلدة لا يعرفك.. كل شيء من حولك يوحي بالنهاية.. ما الذي جاء

بك إلى هنا.. تذكر طفله الرضيع... بكىٰ ذات ليلة، اشتد بكاؤه قالت زوجه إنه جائع ياعبد الغفار.. يريد حليباً مجففاً، كان الطقس بارداً.. لبس معطفه القديم وخرج.

سأل أكثر من محل قالوا له لا تتعب.. الحليب مفقود والزيت مفقود والسكر مفقود.. أنت فقط موجود يا عبد الغفار أنت المثقف وتجهل أن هذه المواد مستوردة وتأبىٰ الدخول إلا إذا دفعنا مهرها... والمهر هو العملة الصعبة والعملة الصعبة طارت مع خبر كان.. ألم تعلم طلابك الأفعال الناقصة ياأستاذ.. وأن أخبارها... قد تطير...؟! رجع والطفل مازال يبكي عندها فقط قرر الرحيل..

اشتد.. ألمه.. ما هذه النار التي تأكل أسفلك.. تحرق أحشاءك.. أمضيت عمري لا أدخل عيادة طبيب ولا مشفىٰ إلا زائراً مريضاً أو مشيعاً جنازة...

فجأة انطلق فحيح الألم حاداً كالسكين، كاويا كالجمر أطلق صرخة جعلت الممرضة تجري مهرولة إليه وتسأل في دهشة: «إيش في، إيش في...».

لـو كنت أدري أنني سـألبس كفني هـذا لـرجعت إلى بلدي أو لبسته بين أهلي وأولادي. . . أو أطلب نقـلا من تلك القريـة اللعينة عـلى الأقـل. . مـديـر التعليم يعرفني لا أكذب لن يتردد في نقلي إلى المدينة لأتخـلص من عـلب الفـول والسردين والـدجـاج المثلج. . الـدجـاج المثلج المستـورد ثقب أمعـائي، ولكن أبـا خالـد هو الـذي كسر ظهـري. . أغـراني بالبقاء. .

خمس سنـوات كـانت مـدة كـافيـة لأتـرك هـذه القـرية، صـدئت فيها روحي، جئتهـا وبها سيـارتان واليـوم بها سيـارتـان، أهلهـا طيبـون صحيـح ولكن صحتي أهم. . قلت لأبي خـالـد أريـد أن أطلب نقلا، احتقن وجهه ثم دمعت عيناه، بكى كالـطفل وقـال بلهجة حـزينة ـ هـل أخـطأت معـك في شيء ياأخي؟

ـ لا ياأبا خـالد حـاشاك ولكن صحتي تتـدهور. أنت ترى. . .

ـ توكل على الله، واطرد عنك وساوس الشيطان فسوف تشفى بإذن الله تعـرفت عليه في الـطائرة. . جئنـا معاً ودخلنـا إلى مـديـر التعليم معـاً. . وكـان

تعييننا كذلك في هذه القرية معاً. كان في مثل سني، ترك زوجته وأولاده مثلي هناك.. أعود إلى حجرتنا المشتركة الوحيدة المتواضعة.. أجد كل شيء جاهزاً، الطعام وبعده الشاي بالنعناع والوجه الطليق الأليف والأحاديث التي لا أدري كيف يصوغها هذا الصديق الحميم، أحاديث لها طعم العسل بعد زمن طويل من الجوع...

* * *

فتح عينيه لأول مرة كان سقف الحجرة يدور، وكانت الممرضة على مقربة منه تدور.. وابتسامتها تدور، زجاجة الماء على المنضدة بجواره تدور.

أحس كأنه في حلم، لم يتأكد من حقيقة وجوده، تحسس جسده جيداً كانت أصابعة مبتلة بالعرق، قطرات العرق على جبينه.. حاول أن ينطق لم يستطع.. بصعوبة بالغة قال أين أنا؟!

ـ أنت هنا ياأخي.... الحمد لله على سلامتك.. مبروك نجحت العملية.. قالها أبو خالد وهو يعانقه ويجفف قطرات العرق على جبينه..

أحس بالارتياح.. أنت والله أصيل ياأباخالد..

قالها دون أن يستطيع نطقها، شفتاه جافتان حولهما بياض كالملح، رفع أبو خالد رأسه.. أسنده إلى صدره، قرب من فمه كوب ماء بارد.. اشرب اشرب ياأخي.. رطب حلقك أنت عطشان.

أدرك أنه مازال يعاني من آثار التخدير..

ـ أنت أصيل ياأباخالد

ـ عيب ياأخي لا تقل هذا نحن اثنان جمعتنا العقيدة والغربة والكفاح.

ولكنني أثقلت عليك؟

ـ لا تقل هذا.. لو كنت أنا مكانك.. لكنت أنت الآن مكاني؛ انقبض وجه عبد الغفار.. تغير لونه، أمسك بطنه بقوة وصر أسنانه إيه أبا خالد أنا بحاجة إلى الحمام...

اتكأ على كتفه ـ خطا خطوته الأولى بحذر بالغ، أطلق الجرح شرراً كاوياً.. كاد يصرخ، وهو يغالب موجة شرسة من الألم المفاجىء.

ـ تماسك ياأخي، كن جلدا، استند على كتفي.. لا ترهق نفسك.. خطا خطوته الثانية وذراع أبي خالد تلتف حول خصره، تخفف وقع الخطوات.. خفت صوت الألم...

ـ غداً تشفى تماماً بإذن الله. . العمليـة نجحت تمـاماً، آلامـك سوف. . تختفي إلى الأبـد ونعود إلى القرية معا.

. . لا تقل ذلك يا أبا خالد. . قل نعود إلى هناك، كل الطيور تعود إلى أعشاشها.

سنعود. . نعود بإذن الله. . .

قـطرات الندى عـلى زهرة ذابلة تسـاقطت كلمات أبي خـالـد. . جفف دمعـات صغـيرة زحمت عينيـه، أحس بشيء من الـراحـة. . اتسعت مسـاحـة الحلم أمام عينيه. . .

في ظهيرة اليوم التالي، في الثانية بعد الظهر تمـاما قــدم أبـو خـــالــد يحمــل بيده كيســاً صغيــراً من البلاستيك.

جلس قبـالتـه، رآه أحسن حـالاً، ولكن بقـايـا عواصف الألم لا تزال تجري في وجهه وعينيه. . .

أين الزملاء ياأباخالد. . .؟!

إنهم خلفي قـادمـون. لكنني، قـال ذلـك وكفـاه تخـرجان من الكيس حبـات التفـاح الأحمـر الـلامـع وأصـابـع المـوز المعطر قبــل أن تخـرجـا لفــافـة من

الورق...

كانت دجاجة حمراء لم تزل ساخنة، كان لأول مرة يأكل دجاجاً جافاً مشوياً على الفحم منذ شهور..

إنه يعرف النكهة المتميزة لدجاج أبي خالد عندما يشويه على الفحم.. أكل بشهية، نسي ألمه. وقطرات الليمون تتساقط من ليمونة كانت بيد صديقه على أوصال الدجاجة هنا وهناك.. وأبو خالد منهمك في استخلاص اللحم ووضعه أمامه.. أكل كثيرا.. كأنه ليس مريضاً ولم يكن تحت مباضع الجراحين بالأمس.. ولم يطلق صرخات متفجرة قبل قليل.. وأبو خالد إلى جانبه تناول تفاحة ناضجة وراح يقشرها.. ويقطعها قطعا متساوية ليقدمها إلى صديقه المريض.

البخيل



الأستاذ الأديب
محمد عبد الرحمن صالح الدين


واحة الكتب

البخيل

الأستاذ الأديب:
محمد عبدالرحمن صان الدين

هـاهو ذا صـديقنا (س) قـد نال مـا كـان يصبـو إليـه، وتحقق له أكـثر ما كـان ينشده، فـأصبـح من ذوي القصـور الشـامخـة، والضيـاع الشـاسعـة، والسيارات الفارهة، والأرصدة في أكثر من مصرف. فقد عرفناه منذ فجر العمر متطلعاً إلى الثراء، مفتوناً بالأثرياء، يخطف بصره منهم بريق الزينة، وتأسر لبه مظاهر الرفاهة والأبهة، وكان من رأيه أن المال يخلق السعـادة والهنـاءة في الحيـاة، ويـظل النفس بـظلال الوداعة والسكينـة ويبني للمرء حصن الأمن والأمـان من طوارق الحدثين، وكان يـرى أن القانـع الراضي باليسير من الرزق كليل الفكـر خائـر العزيمـة خامـد الشعور قليل الحيلة.

ومن هذه الفلسفة وذلك المنطلق كان ينبعث سلوكه وتعامله فهو كز النفس مغلول اليدين يتحلب ريقه عند مظنة الكسب، وتذهب نفسه حسرات عند فوات ربح كان يمكن الظفر به، وكلما ارتفعت أرقام أرصدته في المصارف ازدادت نهمته واستحكم الحرص في نفسه.

وعلى الرغم من هذا كله فقد كنا نحبه ونأنس به في مجلسنا ونهش له، ونصغي لحديثه. فقد كان مرحاً حلو الدعابة سريع البديهة، يحفظ كثيراً من الطرائف والملح، ويجيد إلقاءها بصوت منغم معبر، وإشارات رشيقة لطيفة مما جعلنا نغضي عن صفاته الأخرى، فلنا فيه ما يروقنا وله في نفسه ما يروقها، والناس أخياف مذ كانوا، كل يغني على ليلاه سواء أكانت ليلاه المال أو الجاه والسلطان أو العلم والمعرفة، ولولا أن هناك قدراً كامناً من التجاذب بين الناس لتنافروا تنافر الضدين، وتعاقروا تعاقر ذوات الأنياب والأظفار.

لم تدم موالاة سميرنا (س) طويلاً بعد أن نال الكثير مما كان يؤمل فيه. فقد بدأ يتخلف عن مجلسنا كثيراً ثم أصبح لا يعرج إلا لماماً، وقد

غاضت بشاشته وشحبت طلاوة حديثة وطال صمته وشروده، يقضي لحظات جلوسه معنا في تثاؤب ينم عن الضيق والضجر فلم يعد مجلسنا يستهويه وليس بيننا من يتخذه مطية لمآربه ثم انقطع عن المجلس تماماً، ومضت شهور بل أعوام لم نك نلتقي به فيها إلا صدفة في طريق فنتبادل تحية عابرة ويمضي كل في سبيله.

وقد عزونا سلوكه هذا إلى انصرافه إلى حياته الجديدة، وركونه إلى الاستمتاع بضروب النعيم التي أتاحها له الثراء. وقد حاولنا بادىء ذي بدء جاهدين اجتذابه إلى مجلسنا بكل وسيلة ممكنة فلم نفلح، فانصرفنا عنه، وأسقطناه من زمرتنا آسفين عليه، وهل لنا غير ذلك من سبيل؟ فنحن نعرف أن للمال في نفوس المفتونين به ضراوة شديدة، وأسراً لا فكاك منه إلا بالرحيل عن هذه الحياة.

غاب ذكر صديقنا القديم (س) عن البال وكادت تمحو صورته الليالي من الخواطر وهل يبقى مع الهجران ود، ومع التنائي ذكر؟! وهل الحياة إلا كصفحة الخضم تتابع أمواجها متجددة، مفترساً بعضها بعضاً، متلاشية في سواها وهكذا إلى أن

يشاء الله الحكيم الخبير.

وذات يوم عند الأصيل طرق باب داري طارق لم يكن إلا هو صديقنا القديم (س) فاستقبلته هاشاً باشاً محيياً بكل عبارات التحية فكان رده خافتاً مقتضباً وكأن شيئاً في نفسه مني وقد بدا شاحباً مقطب الجبين شارد النظرات، تزيد الابتسامة المتكلفة وجهه وحشة وغرابة، فهالني الأمر وعقد لساني عن الكلام، فجلس وجلست في صمت وإطراق تذهب بي الظنون كل مذهب، ثم هتكت حجاب الصمت قائلاً: وقى الله صديقنا السوء ورفع عنه البأس وحفظه من وسواس الجن والإنس. فما بالك أيها الصديق على غير ما عهدناك أيام كنت تواصلنا؟؟ أبك من ضر؟ أحدث لك مكروه ولم نعلم به؟ أم نقل إليك واشٍ عنا زوراً وبهتاناً؟ أم... وهنا قاطعني في ضجر قائلاً: كلا كلا لا هذا ولا ذاك فالأمر بعيد عما تظن وتتصور.

وسكت برهة كانت القهوة قد أُحضرت فقدمت إليه قدحاً وأنا أنتظر منه الكلام في لهفة؛ ليكشف عن نفسي ما خيم عليها من هَمٍّ وظن، فرفع رأسه قائلاً في صوت متهدج مرتعش: يا فلان هل أنا

قلت: حاشاك يا صديقي أنت أبعد الناس عن هذه الصفة قال: هل أنا منعزل منطو عن الناس؟ قلت: كلا ولا هذه إلى آخر عهدنا بك، قال: فهل بي مس من الخبال والجنون؟ قلت: ـ وقد نفذ صبري ـ: ما هذا يا رجل؟ أفصح وأبن ما عهدناك إلا شجاعاً صريحاً ولا تنس أن تحتسي القهوة قبل أن تذهب حرارتها ونكهتها المحببة لديك، قال: ولم يعر القهوة اهتماماً: أنا ما جئت إلا لأتحدث إليك بدخيلة نفسي، وأبوح لك بسر كتمته عن الناس جميعاً لعلي أجد لديك ما يسري عني أو ترشدني إلى من يخلصني مما أعاني منه وإلا فإني هالك، قلت: حفظك الله وأبعد عنك البأس واليأس، هات ما عندك فإني مصغ إليك وإلا فما الصداقة؟ وما الصديق؟ قال: فأغلق باب الحجرة ولا يدخل علينا أحد، قلت: لك ذلك.

وأغلقت الباب وأوثقت رتاجه ثم جلست منه عن كثب وأعطيته سمعي وبصري وفكري، فقال: وقد تندى جفناه بعبرة ـ: يا صديقي إنني منذ أعوام وطوال مدة انقطاعي عن مجلسكم الحافل الموفق

بكل ضروب المعرفة والآداب وأنا أعاني من أحاسيس غريبة علي، وليست من طبيعتي: فقد اعتراني في أول الأمر شعور من التطير والتشاؤم إلى حد أني كنت إذا رأيت بعض الحيوانات أو الطيور أو الناس في غدوي لشأني في الصباح أرتد عائداً إلى البيت فلا أخرج طول يومي.

قلت: إيه ثم ماذا؟ قال: غمرني إحساس بأن الناس أقرباء وأباعد طامعون فيما عندي، يترقبون الفرص للانقضاض علي وأن الحياة قد أصبحت غابة تصخب بالزئير والعواء والضجيج.

قلت: وماذا بعد؟ قال: تملكني الرعب والهلع، فأنا دائماً مرتاع الفؤاد مرتعد الفرائص أشك حتى في بنيَّ وأهل بيتي، أخاف من طلوع النهار بضوضائه وصخبه، وأَفرَق من هجمة الليل بظلامه ووحشته، فأنا أفر من الليل إلى النهار، وأهرب من النهار إلى الليل دون أن أجد في كليهما راحة لنفسي أو أنساً لقلبي، وكرهت لقاء الناس ورأيت في ابتسامتهم تكشير السباع لفرائسها الضعيفة.

ثم أردف قائلاً في ارتجاف ومذلة وخضوع: فبماذا

تشير علي؟! أرشدني أرشدك الله وأخرج منديله يكفكف به دموعه المنهمرة من عينيه، فامتلأ قلبي إشفاقاً وغمر نفسي فيضٍ جارف من الحنو والرثاء، فأخذت أربت كتفه قائلاً: هون عليك يا صديقي العزيز فالأمر أيسر مما تتوهم، فهذا عارض يعتري كثيراً من الناس ـ في عصرنا هذا ـ ممن أركضتهم الحياة ورغبات النفس ثم يتلاشى كما تتلاشى السحابة الداكنة تحت أشعة الشمس، وتعود النفس إلى صفائها وإشراقها.

ولم أشأ أن أذكره بفلسفته في الحياة وتعامله معها وأن ما يعانيه إنما هو ثمرة غرسه وحصاد بذره حتى لا أنكأ جرحه وأزيد في محنته بل مضيت قائلاً: ألم تلجأ إلى دار للاستشفاء أو تعرض أمرك على الأطباء؟ قال: لا أنكرك يا صديقي أني فعلت الكثير فكم استحضرت من أشخاص قالوا إنهم يشتغلون بالعلم الروحاني، وسافرت إلى بلدان وقرى كثيرة قيل لي إن فيها رجالاً لهم قدرة خارقة على استخدام الجن السفلي والجن الطيار و. . و. .

ولكني لم أعد من ذلك العناء إلا باستفحال الداء

وتبديد الأموال الطائلة فقلت له: لقد أخطأت الطريق وسلكت وعراً ومتاهات موبقة، ولكني أدلك على النهج الأمثل والعلاج الأنجع، فمن حسن الحظ أن علم النفس قد تقدم في عصرنا هذا وبلغ شأواً بعيداً، فأصبحت له عيادات يؤمها المرضى ويقوم عليها أطباء متخصصون مهرة، خبراء بأدواء النفوس ودوائها، يغوصون إلى أعماقها، ويجوبون شعابها وكهوفها، ويضعون أيديهم على ما قد يكون من علل خفية ويصفون لها الدواء الناجع، فما عليك إلا أن تذهب إلى عيادة من تلك العيادات وليصحبك قريب أو صديق مستنير، وكنت أود أن أصحبك لولا أني مسافر إلى الخارج في صباح الغد في عمل وظيفي.

فقال: سأفعل وهبَّ واقفاً مستأذناً بالانصراف فودعته داعياً له بالشفاء وأنا أفكر في أمره. إن داء الجسم مهما كان عضالاً فهو في متناول الحواس والمجاهير يمكنها تلمسه والوصول إلى معرفته بوسيلة أو بأخرى، أما داء النفوس فشيء معنوي مجهول لا يقع تحت طائلة الحواس التي نحكم بها على الأشياء، وما أحسب ما يصاغ ويدبج في شأن

النفس إلا ظناً وتخميناً من الفكر البشري المحدود والعلم القاصر مهما نما واتسعت آفاقه. وما مثل الطبيب النفسي إلا كالصياد يرمي شبكته في لجة الماء الزاخر ثم يجذبها فيجد فيها صيداً أو لا يجد مهما كان متمرساً بطرق الصيد خبيراً بمواطن السمك وتكاثره والأمر بالنسبة لصديقي (س) لا يعدو محاولة قد يتدخل فيها الحظ فتنجح التجربة في تهدئة مشاعره وتسكين نفسه ولو بتأثير الإيحاء الذي يعمل عمله في كثير من العقول والنفوس.

وفي مساء اليوم التالي كنت في بلاد أخرى لا عهد لي بها من قبل أتلمس طريقي وأتحسس مواقع خطوي ثم رحت في دوامة العمل، وظروف الغربة، ومحاولة التأقلم والتفاعل مع المناخ الجديد، فلم أفق إلا وأنا في طريق العودة إلى الوطن حيث الأهل والأتراب والأصدقاء بعد غيبة استغرقت من العمر عامين وكان من أوائل من خطر في ذهني وتاقت إلى مرآه نفسي هو ذلك الصديق (س) وجاشت في خاطري، التساؤلات: ترى كيف هو؟ ماذا تم في أمره؟ أهو على قيد الحياة؟ أم.. وهل وهل.

على يديـه الشفاء، ألم أقـل لك إن علم النفس قـد تقـدم وارتقى إلى حـد بعيـد؟! فقـال وعـلى شفتيـه ابتسامة ذات معنى آخر: ولكن لم يكن شفائي عنـد واحد من هؤلاء، بل كان عند طبيب من نـوع آخر لا يفطن إليه كثـير من الناس بـل لا يحفلون به ولا يقبلون عليـه. قلت: الذي يعنيني أنـك شفيت، فما قصتك؟ لقد شوقتني وأثرت شهيتي.

فقـال ـ وهـو يضحـك في سرور وسعـادة: ولكن القهوة الشهية لم تقدم لي بعد، ولست بمحـدثك بمـا تتـوق إلى معـرفتـه حتى أرتشف قهـوتي. فضحكنـا وأحضرت القهـوة وأخـذ يـرشفهـا مستـطيبـاً عبقهـا ونكهتهـا وبـدأ يتحـدث قـائـلاً: صحبت قـريبـاً لي مستنيراً إلى عيادة نفسيـة لطبيب قـال: إنه عليم بمـا ينتاب النفوس خبـير بما يعتـورها نفـاذ البصيرة لمـاح الفكر، سرعان ما يضع يده على الداء ويمنح بـدوائه الشفاء. فسررت وأملت أن تكون نهاية ما أعاني قد حـانت. وبعد إجـراءات لا داعي لذكـرها بـرز من وراء ستـار شخص معتـدل القـامـة، أنيق الهنـدام، رشيق الحركة مسدل الشعر على منكبيه، ظننت لأول وهلة أنه الطبيب، فأشار إلي قائلاً: تفضل.

فقمت إليه ومعي صاحبي فاعتذر في لطف قائلاً: (بردون)، المريض فقط حسب التعليمات، وقادني في ممر طويل إلى حجرة وقف عند بابها، فانفرج الباب عن غادة حسناء هيفاء ذات زينة وبهاء فحيت بانحناءة رشيقة، وقالت بصوت حالم: تفضل يا (إكسلنس)، وسارت تخطر أمامي في قاعة فسيحة الأرجاء، غصت جدرانها بلوحات وتصاوير مختلفة الألوان والأغراض، وقد صفت على جانبيها المناضد والأخونة التي غصت بالتحف والتماثيل والأجهزة حتى وصلت إلى مكتب في صدر القاعة فخم ضخم له قاعدة ترتفع عن أرض الحجرة، وقد تكدست على جانبيه الأسفار والأضابير، وأجلستني في رفق ورقة على مقعد وثير أمام المكتب وتركتني وانصرفت، ونظرت فلم أجد أحداً جالساً إلى المكتب، وبعد برهة تغير لون الإضاءة في القاعة وانفرج ستار خلف المكتب برز منه رجل يخطو كأنه ملك من ملوك الأساطير وجلس إلى المكتب على كرسي مرتفع بحيث يكون مشرفاً من أعلى دون أن يتكلم، وفتح دفتراً أمامه ونظر إلي قائلاً:

ما اسمك أيها السيد؟ وما سنك؟ وما عملك؟

وأين تقيم؟ وسجل إجاباتي، ثم قال: مِمّ تشكو؟ فقصصت عليه أمري كما حدثتك قبل سفرك وكان يسجل من حين لآخر بعض الملاحظات حتى فرغت، فقال: متى بدأت تلك الحالة؟ قلت من أكثر من خمس سنوات. فقال مستنكراً: أتظل خمس سنوات بدون علاج يا رجل؟! ألم يعترك هذا الشعور في مرحلة من مراحل عمرك؟ كلا.. كلا. قال: هل تشكو من أمراض باطنية في المعدة القولون ـ الكبد ـ الصدر ـ سكر ـ ضغط؟

قلت: كلا إني سليم من كل ذلك، وسكت قليلاً ثم قال: من الآن حتى الغد تحاول أن تتذكر وتسترجع كل ما مر بك في مراحل حياتك من أحداث بارزة ومواقف عنيفة لتحدثني بها مفصلة في مثل هذا الموعد ووقف واختفى وراء ستار فبرزت من حيث لا أدري حسناء أخرى سوى التي استقبلتني أكثر امتشاقاً وسحراً وقالت بصوت نقره كرنين الأوتار:

لقد انتهت الجلسة فإلى الغد وشيعتني بابتسامة وانحناءة أودعت فيها كل ما لدى المرأة من ضروب الإغراء والفتنة ولكنها وزميلتها كانتا كمن يطرق في

حديد بـارد فهما في واد وأنـا في واد آخر. واستقبلني قـريبي الذي كـان ينتظرني وذكـرت له مـا كان ومـا رأيت ومـا سمعت فقال سـترى من معجـزات هـذا العلم ما يشبه السحر، وانصرفت إلى داري أستحث الفكـر وأقلب صفحات الـذاكرة مستعـرضاً أحـداث الماضي البعيد استعداداً لسردها في جلسة الغد. قال صديقي (س):

وجـاء الغد وذهبت إلى العيـادة وبمثـل إجـراءات الأمس كنت على مقعدي أمام مكتب الطبيب الـذي كان في انتظار القـادم، وقال: فلنبـدأ من الطفـولة. ومضيت أقص عليـه وهو صـامت يرسم بـالقلم على الأوراق إشارات ورموزاً ودوائر حتى فرغت ثم قلت له في لهفة: ترى ماذا بي؟ هل يمكن شفائي؟ فتبسم ضاحكاً وقال:

لا تتعجــل فليس الأمـر بهــذه البســاطــة، إنني سجلت بدقة مـلاحظات وانعكـاسات لـلأحداث في النفس اقتنصتها مما قصصت عـلي. وستأخـذ دورها في طـور التحليل السيكـولـوجي الـدقيق ثم تصنف حسب المقاييس العلمية، وتنسب إلى نوع من أنواع الأمراض، وهذا العمل يحتاج إلى وقت لا يقـل عن

أسبوع، فإلى مثل هذا اليوم من الأسبوع القادم، فودعته وانصرفت.

وعدت بعد أسبوع ودخلت على الطبيب بنفس الإجراءات، فحييت وجلست فظل صامتاً يقلب في دفتره فشققت حجاب الصمت قائلاً: لعل نتيجة التحليل تبعث في نفسي الاطمئنان والأمل. فخلع نظارته ونظر ثم عبس وبسر فقال: إنها العقدة.. نعم العقدة لا شك وسيتضح نوعها، ومدى عمقها فيما سنجريه عليك من فحوص واختبارات في الجلسات القادمة، قلت: وهل ثمة جلسات أخرى، قال نعم: إن أردت الشفاء.

قلت فما مدلول العقدة؟ إنني أسمع هذه الكلمة تتردد في أفواه الخاصة والعامة في مواقف مختلفة دون أن أعرف لها معنى واضحاً محدداً، فهل أظفر منكم بتحديد مدلولها؟ ففي ذلك راحة لنفسي وتنوير لعقلي، فقال ـ وقد انبسطت أساريره ومال إلى الأمام مقترباً مني ـ: سأبسط لك المطوي وأكشف المستور متجنباً رموز العلم واصطلاحاته التي لا يستوعبها ويعرف مضامينها إلا أطباء النفس، فاصغ إلي مركزاً انتباهك فيما أقول، إن حادثاً ما وقع لك في مرحلة

ما من مراحل عمرك وترك أثراً وهـذا الأثر سقط في منطقة اللاشعور، واستقـر في الأعماق ونسيتـه تمامـاً، ولكنـه ظـل يعمـل عمله، فتنبعث منـه إشعـاعـات سـوداء وأبخرة قـاتمـة يتسبب عنهـا مـا ينتـابـك من الأحاسيس والمشاعر التي تشكو منهـا، وتنغص عليك عيشك دون أن تعرف لها مصدراً أو سبباً.

فقلت مبهوتاً متحيراً شبه ذاهل: يا ألطاف الله!! وكيف بـالله يا دكتـور نعثر عـلى هـذا الشيء الـذي سقط في تلك الأعماق وقد تحصن بمجـاهيل أربعـة: الزمان والمكان والصفة والسبب؟!! فنظر الطبيب في عيني نظرة متفرسة مرتابة كأنه يستـوثق من أني جاد لا أسخـر، وأنني آخـذ أقـوالـه مسلمـة بـلا ريب، وقبـل أن يتكلم بادرتـه قـائـلاً: في صـوت خـافت حزين: وهل يمكن شفائي، إني لأرجو عـلى يديـك البرء والعافية، فانبسطت أساريره واطمأن.

وانـطلق يقول في ابتسـامـة الـواثق المتمكن: أمـا شفاؤك فهو أمر مقطوع به مؤكد، وأما كيف فذلـك شأن الطب النفسي فإن لدينا نحن الأطباء الأساليب والوسائل التي نغوص بها إلى أعماق النفس ونجـوب شعابها، ونجوس خلال منعرجاتهـا، ونتحسس الداء

في مكمنه الخفي فنزعجه ونهيجه فيطفو على سطح اللاشعور فننقله بوسائلنا إلى بؤرة الشعور، وحينئذ يظهر لنا واضح المعالم فنقضي عليه. ثم أردف قائلاً: ولكن هذا يتطلب زمناً وصبراً وتضحية فهل أنت على استعداد لذلك؟ قلت: نعم نعم، وإني طوع أمرك، ورهن إشارتك ألست الذي سيأخذ بيدي إلى بر الشفاء والعافية؟ فقال ـ وقد بدا عليه الارتياح ـ اتفقنا فإلى أولى جلسات الاختبار ثم العلاج ابتداء من الغد.

قال (س) وبدأت ـ يا صديقي ـ رحلة الفحص والعلاج يواكبها استنزاف ما في الخزانة والجيب، وقد استكنت للطبيب، وركنت إليه ألتمس الشفاء منه وأنظر إليه نظرة العابد لصنمه المعبود، ومرت أسابيع فشهور رأيت خلالها ألواناً من أساليب الإثارة والتهدئة، والإغراء والصد، والإباحة والمنع. والحق أقول: إنه قد بذل جهوداً جبارة، واستنفد معي كل طاقاته وما لديه من أساليب وحيل مبتكرة وغير مبتكرة، ولكني ظللت كما أنا بل ازددت قلقاً وهماً.

وكان آخر جلسة لي عنده تلك التي قال قبلها: ستكون جلسة اليوم شاعرية المناظر، فردوسية

الجمال، بابلية السحر، وقادني إلى شرفة شاسعة تطل على حديقة ذات أشجار وأزهار متباينة الأشكال والألوان، وقد وضع لي كرسياً وثيراً بجانب منضدة صفت عليها أقداح وقوارير ملأى بمختلف الشراب المجلوب من بلاد النور والعلم. ـ كما يقولون ـ ولست أدري ما نوعها وما تحتوي عليه وقد وقفت حوريتان من حوريات الدنيا على أهبة للمسامرة وتقديم الخدمات التي أطلبها ثم قال الطبيب: ستسمع في هذه الجلسة الموفقة ألواناً من الموسيقى تجعلك تسبح في آفاق لا حدود لها من السحر والجمال، وتهدهد مشاعرك بأجنحتها الوردية، وتروي وجدانك من قطرها المنهل من سماء الفن العبقري.

وانصرف الطبيب وقد انطلقت الموسيقى من مكان غير منظور، وملت أنا على أحد جانبي الكرسي واضعاً رأسي على مجمع قبضتي مرتكزاً على ساعدي ورحت في بحار مائجة من التفكير القاتم العنيف، ذاهلاً عما حولي، وطالت الجلسة حتى غمرني الملل وملأ الضيق صدري، واستبد بي القلق.

وبعد فترة أقبل الطبيب باسماً يتهادى ولكن

سرعان ما تلاشت منه الابتسامة عندما رآني مجهم الوجه قلقاً متحفزاً فقال في دهشة: ألم تطربك الموسيقى؟ ألم تسمع إلى وقع المطر وحفيف الشجر، وهمس النسائم، وهديل الحمائم و. . . فقاطعته قائلاً في ضجر: كلا كلا لم أسمع إلا صفيراً وصخباً وضجيجاً أضجرني وصدع رأسي فقال وهو يهز رأسه في استياء ـ إنها سيمفونيات بيتهوفن رقم. . . وموزار رقم. . . و. . . فقلت لا شأن لي بذلك، ولا أرب لي فيه فقال وهو يضرب كماً بكف دعنا. . دعنا لقد حرت في أمرك يا رجل فمن أي طينة أنت؟! قلت بنبرة التهكم ولهجة التحدي: من طينة الإنسان. . ألا تراني كذلك؟!

فقال ـ وقد أدرك أني صدفت عنه ونفضت يدي منه ـ فلنوقف العلاج ريثما تستريح وليكن ذلك في إحدى قرى الفلاحين التي تلائم حالتك، وفهمت ما يرمي إليه ولم أجبه وخرجت من عيادته بلا وداع، وعلى صدري مثل الجبال من الهم، وفي فكري قطع من سواد الليل البهيم، وفي أعصابي شعل من لهب الجحيم، وضاقت بي الأرض بما رحبت فما فيها لنفسي مستراض ولا ملجأ، فانطلقت

في الطرقات هائماً على وجهي لا ألوي على شيء وكأني أركض فريداً في غابة موحشة في ليلة من ليالي المحاق، فلا أعي ولا أسمع إلا زمجرة وحشرجة، ولم أدر من أنا وإلى أين.

وبينما أنا في تلك الدوامة الداوية والغمرة العاتية إذ بصوت ملائكي حنون ينبعث من فوق بناء بسيط متواضع ويساقط في أذني ذلك النشيد الخالد: الله أكبر.. الله أكبر، فانتفضت منتبها من غمرتي وذهولي إلى صوت المؤذن لصلاة المغرب، فاندفعت إلى باب المسجد لائذاً بحماه كالحمل الذي تطارده السباع الضارية أو العصفور الذي احتوشته الصقور الجائعة، وجلست أتوضأ فكنت كلما أسبغت الماء على عضو من أعضائي انطفأت شعلة من الشعل المتضرمة في كياني حتى انتهيت وقد أحسست بشيء من الراحة.

وأقيمت الصلاة فوقفت في الصف، وأقبل الإمام بخطوات وئيدة خاشعة، فكان مره برداً في قلبي وسلاماً، إنه رجل في الخمسين من عمره يقل أو يزيد قليلاً نحيل الجسم خفيف الشعر قد برقت في لحيته المهيبة نجوم الشيب، يلبس قفطاناً من النسيج

الأبيض البسيط، ويضع على رأسه عمامة بيضاء أين منها جلال التيجان على رؤوس الأكاسرة والقياصرة.

وأحرم بالصلاة وأحرمنا، وأخذ ـ يا صاحبي يتلو كلام الله فما دريت ساعتها أبشر ذلك الذي يقرأ أم أنه ملك كريم، وهذا الصوت أينبعث من الأرض أم يتنزل من السماء، وكأني بالكلمات القرآنية تنطلق من فيه طيوراً نورانية غردة لها أجنحة ترف في سماء المسجد، وكان لقراءته وقع في النفوس كوقع قطرات الغيث في الأرض الجدباء، فهي به مرتوية ظامئة إلى المزيد وخلت أن المسجد قد ماج بصفوف الملائكة وبها ما بنا من طرب وإيناس. قال (س) ـ وأنا أصغي إليه مأخوذاً بما يقول ـ: وكان مما قرأ في صلاتنا هذه قول الله تبارك وتعالى: ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾.

وقضيت الصلاة، وانصرف المصلون إلى شؤونهم وبقي الإمام وبقيت أنا مشدوداً إلى المسجد مستشعراً برد الراحة كاللائذ بالواحة الشجراء في متاهات الصحراء من وهج القيظ ولذع الرمضاء، وعزمت

على البقاء لصلاة العشاء، وظللت منجذباً إلى الشيخ الإمام ـ نضر الله وجهه ـ ألاحقه بنظرات الحب والإجلال وقد قام يمشي بخطوات وئيدة إلى خزانة في جدار، وأخرج منها لفافة وجاء إلى حيث كنت أجلس في مواجهة نافذة التماساً للهواء ـ فقد كان الجو حاراً ـ وقرب قلة ماء كانت في النافذة.

وجلس مني عن كثب ثم نشر اللفافة قائلاً: يا أخا الإسلام هل لك في طعام فتدنو لتصيب من رزق الله، فإني كنت صائماً والوقت لا يتسع للذهاب إلى البيت والعودة قبل العشاء، فشكرت واعتذرت بأني شبع لا حاجة بي إلى طعام، وكنت صادقاً فيما مس قلبي من ابتهاج كفيل بإشباع الجائع فيما الحال بمن هو شبع، وأخذ الشيخ يأكل في تؤدة ووداعة، وكان طعامه كسرة من الخبز وقطعة من الجبن وبضع تمرات، ياالله أهذا طعام من خفقت لقراءته القلوب وهفت النفوس بعد صيام يوم من أيام الصيف؟! ولكنها تقوي القلب الذي يبيت عند ربه فيطعمه ويسقيه،، وليس الطعام غاية الإنسان في الحياة ولكنه وسيلة إلى هدف أسمى بالقدر اللازم لحفظ الكيان الجسدي لا بغية اكتناز اللحم

والشحم اللذين يثقلان المرء ويقعدان به عن السمو والقيام بعظائم الأمور.

وفرغ الرجل من طعامه وشرابه رافعاً أكف الحمد والشكر لله الذي أنعم وأفاض، وقام وجدد وضوءه، وصلى ركعتين تنفلاً ثم جلس أمام المحراب على كرسي من الخشب المجرد، وراح يسبح في تفكير عميق ـ وقد أطرق إلى الأرض قابضاً على لحيته.

وفي منتصف الوقت بين المغرب والعشاء أخذ المصلون يتوافدون ويأخذون أماكنهم أمام الشيخ، فهذا موعد الدرس الذي يحرصون على تلقيه بلهفة وشغف كما تجلى في وجوههم ونظراتهم إلى الإمام، وانتظمت الحلقة أو قاربت وقد أخذت أنا مكاني منها، وأخذ الشيخ يتحدث فسمى الله وحده وصلى وسلم على رسوله الكريم ثم قال: صدق الله العظيم حيث يقول: ﴿**وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين**﴾ كنت قد أعددت سورتين من قصار المفصل لقراءتهما في ركعتي المغرب الجهريتين.

وما أن انتهيت من قراءة الفاتحة في الركعة الأولى

حتى أنطق الله لساني بالآيات التي سمعتموها مني والتي منها قول الحق تبارك وتعالى ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم...﴾ ولا ريب أن ما جرى إنما كان لحكمة بالغة في علمه هو جل شأنه فوق العقول والأفهام، ووفق ما يريد لا ما نريد فعزمت على أن يكون درسنا الليلة تجوالاً بين ظلال تلك الآية الكريمة.

وانطلق الشيخ يتحدث بكلام مشرق مضيء صادر من نفس مشرقة مضيئة ينسكب في النفوس انسكاب الألحان، ويستقر في العقل والوجدان نابضاً حياً يعمل فيها عمله.

وكان مما قال في حديثه ووعته ذاكرتي قوله: إن هذا الوجود الرحب الفسيح الذي لا يعلم له حدوداً إلا فاطره، والذي يموج ويصخب بالكائنات الحية، والظواهر والمتغيرات، المليء بالأسرار الغاص بالأخطار يعيش الإنسان فيه على الأرض أعزل لا حول له ولا قوة بالقياس إلى غيره من المخلوقات، فهو بطبيعة مادته وتكوينه هش ضعيف سرعان ما يتهافت وينهار متهشماً، ومع غروره وصلفه فإن بعوضة تقلقه ونملة تزعجه، وحشرة تؤذيه.

أما عقله الذي يتميز به فإنه قاصر عن أن يحيط بكل الظروف المحيطة به، كليل عن إدراك الخفايا والملابسات البعيدة عن مدى حواسه وإشعاع عقله إنما يحيا على الأرض، ويضرب في مناكبها بين الأخطار والأهوال بمدد من السماء، وحماية من الخالق القوي العظيم، وتقدير من الحكيم العليم، وإلهام منه إلى تسخير بعض ما في الطبيعة من قوى كامنة مذخورة مرهونة بمشيئته سبحانه وتعالى، ويظل الإنسان في الحياة متوازناً متناسقاً معها أخذاً وعطاء ما دام موصولاً بالسماء بالأسباب التي مدتها بينها وبينه، فإذا انبتَّ ما بينها وبينه من أسباب انقطع مددها عنه وصار موكولاً إلى نفسه، راكنا إلى أسباب الأرض والتراب، اختل توازنه، واضطربت مقاييسه، فغدا سقيم العقل والوجدان، تعصف به الأوهام وتتخطفه مخالب الأحزان وتملأ نفسه الوحشة، ويسكن قلبه الرعب والقلق، ولو كان يخطر على بسط النعيم والجاه في حمى الأجناد والحراس، ويمتلك خزائن الأرض من الذهب والفضة، وأوديتها من الأنعام والحرث.

إنـه يكون كـالقصر المنيف الذي هجـره سكـانـه وانفض سماره وانقطع عنه التيار الكهربائي، فانطفأت مصابيحه وصار غارقاً في ظلمات بعضها فوق بعض، تخيم فيه الوحشة، وتركض الأشباح وترتع الأفاعي، ولا ينبعث منه إلا صياح البوم ونعيب الغربان، فهو خرب الباطن وإن كان مزخرف الظاهر. وكم نقلت إلينا وسائل الإعلام من بـلاد الإلحاد والكفـران أنباء الانتحـار ممن ركنـوا إلى المـادة وأخلدوا إلى الأرض، وقـطعوا حبـال الصلة بينهم وبين خـالقهم مـع أنهم يتمتعـون بـالـثراء، ويتقلبـون في صنـوف النعيم المبتكـرة، وألوان الـرفـاهيـة المتجـددة التي ابتـدعهـا وأخرجها العلم المجرد عن روحانيـة السماء ونفحـات خالق الوجود.

ولكن ما الأسباب التي تـربط الإنسان بـالرحمن، وما تلك الخيوط التي يصل عبرهـا التيار الـذي ينير الأفئدة، ويشيع فيها السكينة والاطمئنـان، ويكشف لها الطريق في ظلماء الـوجود بـين المزالق والعقبـات الكؤود.

إنها ـ يا إخوة الإسلام ذكر الله تبارك وتعالى، إنه الموجات التي تحمل التوجيـه والإلهام الإلهي لـلإنسان

ليسلك طريق السلامة والنجاة في رحلة الحياة، وما الغافل عن ذكر الله المعرض عنه إلا كالتائه الذاهل عن مصدر غذائه الحقيقي، ومنبع ريه الذي لا ينضب، ومنطلق الهواء الذي يتنسمه ويتردد في صدره، إنه يعيش مبهوراً، متلاحق الأنفاس، ضيق الصدر كأنما يصعد في السماء ﴿**ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً**﴾ وهو أيضاً سيء الظن جافي الطبع لا يفكر في خير ولا يسعى في مكرمة ﴿**ومن يَعْشُ عن ذكر الرحمن نُقيِّضْ له شيطاناً فهو له قرين**﴾ إنه شقي منكود وإن بدا للأغرار سعيداً مجدوداً.

ومضى الشيخ قائلاً: أيها الإخوة، وعلى درب الحياة الوادعة الهانئة أزيدكم نهلة من ينابيع الذكر الحكيم، وألفتكم إلى ومضة من نوره الذي لا يخبو، قال تعالى ﴿**الذين آمنوا ولم يَلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون**﴾ قال الشيخ: وكم في كتاب الله من آيات بينات تلفتنا إلى أسباب الشفاء، وتدلنا على ينابيع الدواء، وكم نسمعها من قراء بل ويحفظها ويرددها الكثير منا ولكنهم يمرون عليها غافلين دون أن يفطنوا إلى ما تزخر به من

كنوز:

كـالعيس في البيداء يقتلهـا الظما

والمـاء فـوق ظهــورهـا محمــول

ويروحون يلتمسون الدواء عند من هم في حاجـة إلى دواء أو يحسبـون الـبرء والإبـلال فيـها هــو سقم ووبـال. قال الصـديق (س) وهنا أدركت أنني كنت طـوال حياتي كمن يـركض في البيداء يلتمس الـرواء من السراب الخداع، وكنت مع المال كمدمـن الخمر فهي داؤه ودواؤه، وما استفحال دائه إلا من دوائه، وأحسست أني كنت كالنائم الـذي جثم على صـدره كابوس المـزعجات الـرهيبة حتى كـاد أن يختنق فهب فـزعاً مـرتاعـاً ليجد أمـامه مـلاك الرحمـة المتمثل في الشيخ يوقفه على منبع الدواء ومبعث الضياء.

وصلينـا العشـاء، وخـرجت من المسجـد وكــأني خــرجت من الحـــمام مغتســلاً نقي النـفس صـــافي الـروح، وسرت في طـريقي إلى البيت وكـأني أسـير على أقدام مجنحة تطير في الهواء، وقد غمـرني فيض من الشعور بالبهجة لا عهد لي به من قبل، وكـأني لم أولـد إلا اليـوم. فقلت صـدق الله العـظيم ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾

الخائف التائب



الأستاذ الأديب
خميس عواد عودة


واحة الكتب

الخائف التائب

الاستاذ الاديب:
خميس عواد عودة

لا يصلين أحد منكم العصر إلا في بني قريظة قالها الرسول عليه الصلاة والسلام، فانطلق المسلمون صوب المدينة، ولما يخلعوا عدة الحرب، وقد كفاهم الله القتال هذا الصباح، فقد أرسل ريحاً وجنوداً شتت شمل الأحزاب، وردّ الله الذين كفروا بغيظهم، وخلا المؤمنون لمحاسبة الغادرين الذين طعنوهم من خلف وهم بنو قريظة.

وعلي بن أبي طالب يرفع لواء المسلمين، والمؤمنون خلفه يغذون المسير تنفيذاً لأمر الرسول الكريم.

ويهود بني قريظة محصورون خلف آطامهم، يتحصنون وراء قلاعهم، لا يقوون على مواجهة المسلمين، جريمتهم تثقل كاهلهم. والخوف يزلزل نفوسهم.

تبادل الفريقان الرسل، وأصر الرسول على أن يتولوا إليه ثم استقر الرأي على أن يتشاور بنو قريظة مع أبي لبابة الأوسي حليفهم، الذي لبىٰ نداء العقل فآمن بالله تعالى رباً وبالإسلام ديناً، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً.

أذن الرسول له بالتوجه إليهم، يبادلهم الرأي.

ـ ما الرأي يا أبا لبابة؟

وتدور الصور سريعة أمام ناظريه: حلفاؤه نقضوا العهد، وخانوا الأمانة، وطعنوا المسلمين في مأمن.

وسعوا إلى القضاء على دين الله، غدراً بعهدهم مع النبي على التعاون معه.

فجزاؤهم التنكيل بهم والقتل لمحاربيهم.

ـ أبو لبابة يعرف هذا، ويعرف أن ذلك هو الحكم عليهم، وانتابته قشعريرة للحظة. فحلفاؤه يطلبون الرأي، وعزّ عليه المصير المحتوم الذي ينتظرهم، وهم الآن يلتمسون مشورته.

ـ ما الرأي يا أبا لبابة؟؟

وارتعش صوت الصحابي الطيب وهو يقول لهم:

ـ انزلوا.

وصمت، لكنه أكمل الرأي بيده، فأشار إلى حلقه، يريد أن الحكم المنتظر هو الذبح.

وفور إشارته تلك شعر بفداحة الذنب، وأحس أنه أفشى سر المسلمين، وتفجرت ينابيع الحنق داخله، ويلك يا أبا لبابة، أتفشي سر رسول الله؟

لِمَ أشرت بيدك؟؟
لِمَ أومأت لهم بالحكم؟
وكيف ستعود الآن إلى الصفوف؟
وتحركت قدماه بطيئة مضطربة أين الاتجاه؟ إلى الرسول. لا.

وامصيبتاه لن أعود إلى الصفوف بعد سقطتي تلك.

وشرع يهيم في كل اتجاه الا صوب المسلمين، وصار إنساناً آخر: أشعث، أغبر، يتسابق الدمع على خديه، وتتخلل الدموع لحيته، وسقطت عمامته، وضاع خفاه، وفقد الاتجاه، أين المسير؟

إلى الدور؟ مع النساء؟ وسط الأطفال؟

فليس لي مكان بين المقاتلين، وليس لي أن أقف بين

الرجال.

هرعت زوجته خلفه إلى المسجد، يجرجر قـدميه، ويسحب سلسلة غليظة.

- ويحك؟ ماذا فعل الله بك؟

وينظر كسيفاً إلى زوجه يؤلمه سؤالها ويمزقه الجواب:

- إني خنت الله ورسوله.

والله لن أذوق طعـامـاً ولا شرابـاً حتى أمـوت أو يتوب الله عليّ مما صعنت.

ويلتصق بـالعمود، ويشـير إلى زوجته سـاعديني، فتحكم وثاقه إلى السـارية بـالسلسلة الغليظة وتـزوغ عينـاه إلى بعيـد، ويلهـج لسـانـه بهمهمـة خفيفـة، ويغيب عن الوجدان.

افتقد الرسـول أبا لبـابة، فسـأل عنه، فـأخبر وه أمره، فتألم، وقال:

- (أمـا لو جـاءني لاستغفـرت لـه، أمـا وقـد فعـل فلنتركه حتى يقضي الله فيه).

وما فتئ أبو لبابة في تسبيحاته واستغفاراته..

وفي عتمة المساء جاءت زوجه تحمـل خبزاً وتمـراً لعله يصيب شيئا فيقول:

ـ لا طعام، ولا شراب حتى أموت أو يتوب الله علي

وتمضي الساعات بين نوم ويقظة: إذا غفا لحظة يفزعه ذنبه، ويشده وثاقة، فينتبه مذعوراً، ليعود إلى استغفاره.

وتمر الأيام ويهود بني قريظة داخل الحصار جنوب المدينة، وأبو لبابة مقيد في المسجد شهالها وتكمل الأيام دورتها السادسة، والمحصورون خلف آطامهم باقون، والمكبل على قيده باق، ضعفت مقاومتهم، ووهنت قوته، وقذف الله في قلوبهم الرعب وأنزلهم من صياصهم وهلك المسلمون وكبروا فقد أطيحت رؤوس الغدر، وقسمت أموالهم، وسبيت ذراريهم ونساؤهم وباركت السماء النصر.
وأسرع البشير إلى المسجد:
ـ أبشر يا أبا لبابة..
ـ .. .. ..
ـ بشراك يا رجل، لقد نزل يهود لرأيك.
ويفتح أبو لبابة عينيه بجهد، ويتمتم بصوت بكاء يسمع:

ـ لا طعـام، ولا شراب، حتى أموت أو يتـوب الله عليّ ما صنعت.

وتخور قواه، وتغمض عيناه، ويفقد وعيه ويخر مغشياً عليه.

ويسرع رسـول من عنـد رســول الله، يبشر أبـا لبابة بالغفران ويهـزه عنيفاً حتى يفيق، ويـطلب منه تحرير نفسه من هذه الأغـلال لكنه يـأبى ويتكلم في ضعف.

- لا.... لن يحـررني.... إلا.... رسـول الله.

ثم يغمى عليه، ويغيب عن الوجدان.

الرسول عليه الصلاة السـلام يربت عـلى خده في رفق فيعـود أبو لبـابة إلى وعيـه، ويجاهـد حتى يفتح عينيـه، فتقابله طلعـة الرسـول الباسمـة، ويصـافـح سمعه صوت النبي وهو يفك وثاقه ويتلو.

﴿وآخـرون اعترفـوا بذنـوبهم خلطوا عملاً صـالحـاً وآخر سيئاً عسىٰ الله أن يتـوب عليهم إن الله غفور رحيم﴾ [التوبة:/ ١٠٢].

ياسمين



الأستاذ الأديب
محمد لبيب البوهي


واحة الكتب

ياسمين

الاستاذ الاديب:
محمد البوهي

وقف الناس صفوفاً، في أقصى المدينة أمام قبر جديد، وكانوا جميعاً في صمتهم الطويل الحزين يعبرون بلسان الحال عن مأساة نزيل القبر الجديد، وكان الهمس يتردد بين صفوف الجموع.

لقد مات الرجل كمداً على ابنته.

ماتت الوحيدة ياسمين العزيزة بالأمس، ولم يحتمل أبوها هول الصدمة فلحق بها في أمسية اليوم التالي.. ووقف جميع المشيعين على قبره آسفين واجمين بينما كانت يد الحفار تسوي التراب على فوهة القبر المفتوح.

ومن العجيب أن نزيل القبر لم يكن في عزلة عما يدور حوله، فما أن وضعوا جثمانه على الأرض الرطبة، وانصرفوا عنه مدبرين، حتى تلفت يميناً

وشمـالاً، فلما اطمـأن إلى نفســه نقض عنـه كفنــه الأبيض، وتكـوم في أحـد أركـان الحفـرة الضيفـة، وأخــذ يصيـخ السمــع إلى مـا يقــولـه المشيعــون الطيبون، وعـادت قصة المـأساة تـرتسم في ذهنه من جديد بكل تفاصيلها.

كـانت ياسمـين هي كل حيـاته، لم يكن لـه في دنيـاه سواهـا، وكان يكـد ويعمـل ليهيىء لهـا كـل أسباب السعادة، سيـارة أنيقه، وداراً وسيعة، وترف ليس بعـده من ترف، وكـان في الأسبوع الأخـير في سفر خارج البلاد، في رحلة ممتعة طـابت له أمـورها هناك، حتى لقد تمنى أن يطيل أمد الرحلة يـومين أو ثلاثة، لولا الشوق الملحـاح الذي قـاده بالـرغم منه الى المـطار، الشـوق إلىٰ العــودة، الى حيث تنتـظره ياسيمن، فليس في الوجود أكثر سعـادة من أن يضم إلى صدره بعد ساعة أو زهاءها ابنته الحبيبة، ويقبل منها الجبين، وينـظر طويـلاً في عينيها، وهي تهم أن تشيح عنه معاقبة لغيـابه عنهـا بضعة أيـام في غضب لذيذ، وعند ذلك سيضحك بكل جماح قلبه ويقذف بالحقيبة قائلا:

هيا.. هيا ياصغيرة... لـك في هذه الحقيبـة ما

تشائين من هدايا . . .

هـذه هي الأفكار الحلوة التي كـانت تداعب خيـالـه حـين كـان في طـريقـه إلى المـطار . . وهـا هي ذي الطائرة تهبط أرض البلد الحبيب، وهـا هو ذا يسيـر في ممشىٰ الحـديقـة، ويـتريث عنـد شجـيرات الـورد باحثا بعينيه : أين ياسيمن . . . ؟

أخــذ ينـظر في ريبــة يمنـه ويسرة، أين الـطفلة الحبيبـة؟ ولماذا تـركت مكانها المختـار عند شجـيرات الورد . . . ؟

وراح يصيـح : يـاسمــين . يـاسيمن . . ولكن لا مجيب . . وطالعته في مدخل الدار إحدى قريباته . . . لم تكن السيدة أبداً كـالعهد بهـا، إن نظرات الشؤم كانت تطل من عينيها، وعلى شفتيهـا كلام لا تجـرؤ أن تحــرك بــه اللســان، وصرخ في وجههــا وهــو يهزها . . ماذا؟

ولكن المسكينــة لم تجب، كـانت السيــدة تبـدو كتمثـال قُدّ من حجـر، فزاد ذلـك من ريبته، وراح يقفـز درجات السلم قفـزاً، ثم ضرب الباب بـركلة من قدمه، واندفع إلى حجرتها .

وتوقف في منتصف الحجرة، كان كل شيء صامتا جامداً حتى هواء المكان أصبح ثقيلا يكاد يكتم الأنفاس، أين صوتها..؟ أين ضحكاتها...؟ أين البسمات العِذاب المشرقة..؟ أين... أين؟

وصاح من أعماق قلبه: ياسمين..

وارتد إليه الصدى..

وأخذ يجد البصر صوت سريرها الصامت ـ ترى أهي نائمة...؟ أهي مريضة؟ وكانت السيدة قد لحقت به، فلما كشف غطاء السرير ولم يجد شيئا قالت في خفوت:

إنها هناك.. نقلناها إلى المستشفى.

واندفع كالصاروخ لا يلوي على شيء.. وبدت شجيرات الورد حزينة كأنها تتهامس فيما بينها بشيء يثير الإشفاق...

وعند باب المستشفى قابله الناعي.

وأدرك كل شيء، واستند إلى الجدار يحاول أن يتماسك، حتى لا ينقض أو ينهار، ومادت به الأرض، ودارت به الدنيا... البيوت والأشجار.. والسيارات والناس.. كل شيء يدور، وهو يهوي في

دوامة ليس لها من قرار.. وغمره عرق غزير.

* * *

لقد ذهبت إذن ياسمين، وذهب بذهابها كل شيء.. وراح يضرب كفيه متسائلاً وهو يهذي.. أهكذا..؟ سريعاً سريعاً بغير مقدمات ولا إنذار..!! ما هذا الشيء العجيب الذي يسمونه الدنيا؟ ولماذا لا يرحم الردى هذه الوردة التي خطفها من بين الأكمام..؟

وبصق على الأرض.

لقد كان في أعماقه يتصور أنه يبصق على الدنيا.

* * *

ومضت الساعات لا يعرف كيف مضت.. وأقسم ألا يكون له بعد اليوم مع الحياة شأن، سيدع كل شيء وسيتفرغ. للإسىء والحزن لن يمد بعد اليوم يداً إلى إنسان، لن يمسح عن مكروب أسباب كربته، إنه يعاني من الشقاء ما لم يكن له في حسبان. يجب أن يخلع هذا الشقاء على كل شيء... وإلا فلماذا يظل هو وحده يتجرع كل هذه المرارات.؟!

لقد رأى أن يتخذ لنفسه شعاراً شيطانياً أسود.. كأنه ينتقم بهذا الإحساس الكئيب من الوجود.. وأقسم ألا يخلع عنه لباس الحزن.

واتخذته في الأمسية الثانية سنة من نوم، وها هو في خلال هذه السنة يرى نفسه في هذا القبر.

ها هو ينفض عنه الكفن.. إنه ليس خائفا من الموت، بل إنه به لجدُّ سعيد، فمن المؤكد أنه قد دخل عالم ياسين. سيراها إذن وتراه.

لقد ترك الدنيا البغيضة ودخل من باب عالم النور والأحلام الجميلة والموسيقى والطيور والزهور.

ولكن أين هي ياسمين...؟ لماذا لم يرها؟ ولماذا لم تسرع إليه، لقد ذهب المشيعون، فأخذ ينظر إلى جدران القبر، وراحت الجدران تتباعد والقبر يتسع ويتسع، حتى لا يكاد نظره يبلغ مداه، وها هو شيء آخر عجيب، إن مياه البحر تندفع إلى القبر، وهذه موجة عارمة تحمله إلى السقف حتى يكاد رأسه ينشق نصفين، ثم ها هو ذا يهوي بعد ذلك إلى قاع اليم.... وها هو رجل على الشاطىء يصيح.

مسكين.. مسكين.. لقد مات كمداً من أجل ياسمين.. مات على نية شريرة.. لقد عرمه شعور بكراهية الناس. كان يريد أن يذيقهم ألواناً من الحزن ليخلع عليهم شقاءه.

وذهب الرجل أما هو فقد قذفه البحر إلى قبره من جديد.. وأخذت جدران القبر تقترب وتقترب.. وحجم القبر يضيق ويضيق حتى كادت الجدران تهشم ضلوعه وصرخ، ورأى فرجة في حائط فنظر إلى الخارج فإذا الليل والبرد والظلام، وبومة تنوح على شجرة الصبار.

وعادت جدران القبر تضيق به حتى تلاصقت والتحمت وهشمت جسده دون أن تصغي إلى صراخه.. إن صياحه لم يعد يصل إلى أحد، حتى البومة التي على شجرة الصبار لم تحفل به حين أرسل إليها نظرة استجداء.

* * *

ونهض عملاق هائل أمام حافة القبر يحمل شيئاً كالعصا يشير بها إلى الأفق ثم يصيح: ألف عام.

وتساءل الميت! ما هذا..؟ ومن أنت؟ وماذا

تصنع؟ قال العملاق: إني حارس الزمن... أحصي السنين... لقد مضى عليك في القبر ألف عام.

وعاد يضرب يديه في حسرة.. الف عام ولم أرها بعد...؟

ولم يكد ينظر مرة أخرى إلى العملاق حتى صاح هذا وهو يشير بالعصا ألف عام أخرى..

ونظر الدفين المسكين فإذا هو في غير قبر.. إنه شيء يسبح في فضاء لا يحده شيء، ولم يعد هناك قبر ولا جدران، ولم تعد هناك بومة على شجرة الصبار، لم يعد غير العملاق حارس الزمن يلاحقه... مليون.

فالتفت إليه مستفهما مليون ماذا؟

قال حارس الزمن.. مليونان من الأعوام.. ثلاثة ملايين.. لقد مضى عليك في قبرك بضعة ملايين من السنين.

وفاضت الدموع من عينيه.. وهو يخافت في صوت تلونه الوجيعة ومع ذلك لم أر ياسمين..؟

ثم توقف الروح الهائم في الفضاء.. هناك شيء

عجيب. . أعجب من كل ما شاهد ورأى.

لقد دكت الأرض والجبال، وتناثرت الكواكب والنجوم وأصبح كل شيء كَالعهن، وفتحت القبور أبوابها وطار منها الفراش المبثوث.

وجاء الصوت من بعيد. . صوت حارس الزمن. . . . وانتهى كل شيء. . وصاح المنادي أيها الناس. . إنها الساعة. . وستلاقون يومكم الذي كنتم توعدون.

* * *

ومرت أزمان لا نحصيها عداً في هذا الموقف العصيب، وتهامس الفراش المبثوث يتساءل كل أفراده عن الميزان.

وجاءهم الجواب من حيث لا يشعرون.

قبل أن يقام الميزان هناك أقوام ستفتح لهم الأبواب بغير حساب وصاح المنادي من مكان قريب.

من كان له عند الله دين فليقم ليأخذ دينه. وتساءل أفراد الجراد المنتشر:

عجيب هذا الأمر. !! أيكون لبعض الناس عند الله تعالى ديون. !؟

وعاد المنادي من المكان القريب.

بلىٰ. . من نزلت به في دنياه نازلة. . من ابتلىٰ بنقص في الأموال أو الأنفس أو الثمرات أو بشيء من الخوف. . أو ابْتُلِيَ بفقد عزيز فهولاء هم الذين لهم عند الله تعالىٰ الديون. .

* * *

كان الفضاء الذي لا يحد. . يموج بأفواج بعد أفواج بعد أفواج من الخلائق فنهض أكثرهم مهطعين إلى الداعي، فما من أحد في الدنيا إلا ونزلت به نازلة وقالوا جميعا في صوت واحد كالرعد.

نحن إذن ممن ستفتح لهم الأبواب بغير حساب.

فعاد المنادي يهتف بصوت هادىء قوي رصين:

أيها الناس. . إنكم حقا قد ابتليتم بشتىٰ صنوف البلاء، ما من أحد من البشر إلا وقد أصابته مصيبة من ضياع مال. . أو فقد عزيز. . ولكني لست أعني كل هذه الجموع.

فصاحت ملايين الملايـين من الخلائق التي ابتليت في حياتها بكل هذه الألوان من البلاء

فماذا تريد إذن أيها المنادي القريب...!؟

قال المنادي:

أعني من ابتـلى فلم يجزع.. من ابتـلى فصـبر.. من ابتـلى فتماسـك ورفع نـاظريـه إلى السماء، وقـال صبرا يانفس فإنا لله وإناإليه راجعون.

ونـظر الناس بعضهم إلى بعض وهم يـتراجعـون والمنادي يستطرد: ارجعـوا إلى صحائف أعـمالكم.. فمن وجـد فيها الصـبر والرضـا فهؤلاء الـذين هم عند الله دين.

وتراجعت ملايين الملايين صفوفا وراء صفوف ممن ابتلوا ولم يصبروا.. وظلت ثلة قليلة ثابتـة في مكانها فتقدم المنادي من هؤلاء وقال:

مـرحبـاً أيهـا الصـابـرون.. طـوبىٰ لكم وحسن مآب.. هيا معي.

ونـظر صاحبنـا ـ صاحب هـذه القصة ـ إلى حيث أشـار المنادي فـإذا بشيء يشبه بسـاط الريـح تواكبـه

هـذه الأرواح فلم يطق صـاحبنا صبـراً وانـطلق من خلفها ليرى أين سينتهي بها المصير.

لقد وقف بساط الـريح حـامل الجمـوع الصابـرة عند باب الجنة وتقدم رضوان يتساءل:

ما هذا أيها المنادي القريب.

قـال المنـادي: افتـح يـارضـوان.. فهؤلاء هم الصابرون.

قـال رضـوان: كيف أفتـح. ولم ينصب لهؤلاء ميزان ولم يقدموا عن أعمالهم حسابا.

فتبسم المنادي ضاحكاً وقال:

اذكر يارضوان قول الله تعالى إنما يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب

قال رضوان: صدقت:

ثم فتح الباب وهو يقول: ادخلوهـا بسلام ذلـك يوم الخلود.. لكم ما تشاءون فيها ولدينا مزيد.

* * *

كان صاحبنا نائما في سريره وقـد أخذتـه سنة من

نـوم رأى خلالهـا هذه الـرؤيا واستيقظ عـلى صوت طرق على الباب.

كـان أحد أصحـاب الحـاجـات الـذين أغلق من دونهم بـابه منـذ مـاتت ابنتـه.. ويئس من الـطرق وهمَّ أن ينصرف ولكن صـاحبنـا أسرع من خلفـه ينـادي: لبيـك أخي لبيــك.. هيـا تقــدم.. فـماذا تريد؟.

لقــد ذهبت عن عينـه الغشــاوة، انكشف عنهـا الغطاء وما زالت الرؤيا تتـماثل في خـاطره، وبسـاط الـريـح ومـلايـين الخـلائق.. وصـورة المنــادي... وأبواب الجنة، وصوت رضوان: إنما يوفّى الصابـرون أجرهم بغير حساب.

صداع



الأستاذ الأديب
أحمد محمد الصديق


واحة الكتب

صـــراع

الأستاذ الأديب:
أحمد محمد الصديق

كانت الشمس مشرقة، والسماء صافية، بينما كان الصوت الرباني المضيء يرتفع من حول الكعبة، مردداً تلك الكلمات الرائعة والعبارات الخالدة:

لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعزّ جنده، وهزم الأحزاب وحده.

ويتجاوب هذا النشيد العذب في أجواء مكة، أشبه بتسبيح الملائكة، تتداح أصداؤه على السفوح والجبال المجاورة، فلا تدع بيتاً من بيوت مكة إلا دخلته.. وقريش بكبريائها الجريحة.. تتجرع مرارة الهزيمة، وتلوك غيظها المكتوم.. هالعة مشدوهة مما ترى وتسمع، ولا تكاد تصدق ما يجري من أمر هؤلاء المسلمين الذين يدخلون مكة فاتحين.. تحت

قيادة محمد بن عبدالله صلوات الله وسلامه عليه.

* * *

ويمر رجل.. عربي أسمر الجبهة، نحيف البنية، ضامر الوجه، حاد النظرات.. كأن في نفسه شيئاً مبيتاً، أو مكيدة مدبرة، يحرص على إخفاء أمرها وكتمان سرها.

ويسأله رجل من قريش:

- إلى أين يا فضالة بن عمير؟

ويلتفت فضالة إلى مصدر الصوت بشيء من الريب، وقد أحرجه السؤال، ثم لا يلبث أن يطمئن إلى الرجل، وقد علم أنه لا يزال على دينه الوثني، وأنه من الحاقدين على محمد وصحبه، ويتمنى لو يقوم من قريش رجل فيه نخوة وحمية، فيثأر لقريش ولآلهتها المحطمة، التي طالما عكفوا عليها وطافوا بها وقدموا لها القرابين!..

ويهز فضالة رأسه مقتنعاً بضرورة المضي لشأنه، ثم ينظر إلى الرجل نظرة المصر على عمل ما، ويقسم قائلا: واللات والعزى، لأجعلن من يومي

هذا تاريخاً يروى وتتناقله الأجيال.

- وماذا أنت فاعل يا ابن عمير؟!

- سأفعل ما عجزت عن فعله العرب حتى اليوم..

ويبتسم الرجل وقد أدرك مقصد فضالة، أو خيل إليه أنه أدرك، ويقول:

- لا شك أن ما عجزت عنه العرب حتى اليوم هو القضاء على دين محمد وعلى محمد نفسه، الذي سفه أحلامنا وسب آلهتنا، ولم يزل حتى امتدت إليها يداه، فهشمها وألقاها على الأرض جذاذاً.. ثم يزعم بعد ذلك أنه نبي يتلقى الوحي من السماء..

ويضرب فضالة بيده على كتف الرجل قائلاً:

- سأمضي في سبيلي لا ألوي على شيء.. وسيعلم أصحاب هذا الدين الجديد أن لآلهة قريش من ينتقم لها، ولا يستكين على ضيم..

* * *

ويحك يا فضالة بن عميرا..

ما بالك؟!.. وما يثير حفيظتك؟!

لم لا تدخل في حظيرة الإيمان، وتصبح واحداً من أولئك المسلمين، الذين يرجون من الله تجارة لن تبور.

ولكن قاتل الله الهوى والشيطان.. وحمية الجاهلية الرعناء..

* * *

ويتحسس فضالة الخنجر الذي أخفاه تحت ثيابه.. ويمضي نحو الكعبة حيث يحتشد المسلمون حول قائدهم العظيم ونبيهم الكريم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وحيث ينوي فضالة أن ينفذ جريمته النكراء.

ويتوقف فضالة في منتصف الطريق، وقد هاله ذلك الحشد من المسلمين، وجوههم مشرقة، وأعينهم تفيض من الدمع، وألسنتهم تلهج بالحمد لله والثناء عليه أن صدق نبيه الرؤيا بالحق، فدخلوا المسجد الحرام آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين لا يخافون..

وهاهم الذين كانوا يتحرقون شوقاً إلى مبيت ليلة

في مكة بين شامة وطفيل.. وحولهم إذخر وجليل.. هاهم أولاء اليوم يبلون شوقهم فرحين بما آتاهم الله من فضل، وقد طوّفوا بالبيت العتيق، واستقوا من ماء زمزم، وكانوا حزب الله الغالبين..

توقف فضالة قليلاً، تتناوبه الانفعالات، وتتجاذبه شتى الدوافع والأفكار، فيتصور الأمر هيناً تارة، وخطيراً تارة أخرى، وإنه ليطمع أن يعلو نجمه، ويصبح حديث الناس في كل منتدى، نظراً لعمله البطولي الذي سيأتيه، إلا أن هذه البطولة المكتسبة قد تكلفه حياته إذا هو أخفق في مهمته، بل وحتى لو أفلح فيها، فإنه لن يفلح في الفرار، ولن يفلت من أيدي المسلمين.. وتتملكه مشاعر ووساوس غريبة، ويفزعه شبح الموت حين يتخيل نفسه وقد جندل صريعاً تحت ضربات السيوف..

ويضيق الفضاء في عينيه، وتغيم الرؤى في مخيلته.. ويستولي عليه هم شديد، ثم سرعان ما يجد قدميه تسوقانه من حيث لا يدري إلى وجهة أخرى، إلى مكان مألوف لديه، إلى بيت امرأة من النساء اللائي يحترفن الهوى ويتاجرن به.. لقاء ما

يتقاضين من أجر لا يساوي شيئاً مما يفقدنه من قيمة إنسانية، وما يعن من متاع الشرف والعفاف.

اعتاد فضالة بن عمير أن يحادث واحدة من أولئك النسوة، ويسامرها، ويقضي معها الأوقات الطوال لا يحس بها كيف تتصرم.. فقد شغفته حباً، وأنس بحديثها، وربما نال منها وطره.. ولا حرج عليه.. فشرعة الجاهلية تبيح له ذلك بل وتعتبرها أحياناً من تقاليدها.

ويقول فضالة في نفسه: لا بد أن أذهب إلى تلك المرأة أستشيرها فإنني في حيرة وارتياب.. أأمضي في سبيلي، فأتابع خطتي إلى النهاية؟!.. أم أدع الأمور تجري في مجاريها وأنتظر من أمر الناس مع هذا الدين الجديد ما يكون.. خاصة وأنه قد ظهر وانتشر، وبات من العسير إن لم يكن من المستحيل القضاء عليه؟.

ويمشي قليلاً.. لعله يجد عند تلك المرأة ما يسرّي عنه الهم، أو لعلها تشير عليه بالحل الشافي والجواب المقنع.. ولكنه يتردد.. ثم يعن له أن يجلس في ظل جدار قريب، يفكر في أمره، ويقلب

الرأي على وجوهه..

* * *

كانت الشمس قد حمي أوارها، وارتفعت في كبد السماء كقرص فضي لامع.. فانعكست أشعتها المتوهجة على الصخور الملساء في جبال مكة القاحلة الماحلة.. المحدقة بها من كل جانب، تحبس عنها الهواء فتزداد نفس فضالة ضيقاً وبؤساً، ويشعر بالحاجة الملحة إلى من يخفف عنه العبء، وينفس الكرب..

ويرفع يده ليجفف بطرف كمه العرق المتفصد من جبينه، وقد بدا له أن بيت المرأة الذي يقصده قد أخذ يبتعد شيئاً فشيئاً عن متناوله، رغم قربه منه، نظراً لهذه الأزمة النفسية التي يعانيها، وذلك الهمّ المسيطر عليه، حتى ليكاد ينسى ما هو المقدم عليه، ويغفل عن اليمين التي أقسمها في أن يثأر لكرامة قريش، وينتقم لآلهتها التي كبكبت في فناء الكعبة مهينة مستحقرة.

وأخذ فضالة يفكر: إن أهل مكة قد بدأ يشيع

بينهم الاطمئنان.. ويهدأ روعهم لما رأوا أن محمداً ـ عليه الصلاة والسلام ـ لن يمسهم بسوء، وأن هؤلاء الذين يسمون أنفسهم مسلمين إن هم إلا طراز جديد من الناس لم يعهده أهل الجاهلية من قبل.. ولو كان الأمر غير ذلك.. وكانت قريش هي الفاتحة المنتصرة، لأريقت الدماء، وأزهقت الأنفس وفسدت البلاد..

وإذا كان الأمر كذلك، فما بال ابن عمير؟! لِمَ لا تطمئن نفسه كما اطمأن سائر الناس ويعترف بالأمر الذي علت كلمته الحق كما اعترفوا؟!

طالما تحدثت قريش عن هذا الخطر الذي يتفاقم يوماً بعد يوم من ناحية يثرب، متمثلاً في هذا الدين الجديد، حتى وقر في نفس فضالة، وفي نفس الكثيرين: أن هذا الدين لا سبيل إلى مقاومته إلا بالقضاء على صاحبه الذي بشر به أول مرة، ودعا الناس إليه.

وتمر في مخيلة فضالة صور كثيرة من صور الحرب العنيفة التي شنتها قريش على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل الهجرة وبعدها.. حتى كان صلح

الحديبية الذي عقدت بموجبه هدنة بين الفريقين، وانقسمت القبائل إلى معسكرين، منها من حالف قريشاً كبني بكر.. ومنها من حالف رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل خزاعة.

ويعصر فضالة جبينه ليتذكر نص المعاهدة التي عقدت بين الفريقين والتي كان لا يشك لحظة هو وكل من سمع بها يومئذ في أنها كانت نصراً لقريش على محمد!.. كيف لا يكون ذلك وإنه ليتذكر منها هذه العبارة (إنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم.. ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه) وقال بنو بكر يومئذ لمحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ (ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة، وإنه إذا كان عام قابل خرجنا عنها فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثا، معك سلاح الراكب، السيوف في القرب لا تدخلها بغيرها)؟.

ولكن الذي لا يدري فضالة له جواباً هو: كيف انقلب ذلك النصر إلى هزيمة نكراء.. ربما لن تقوم بعدها لقريش قائمة؟

ولو تساءل فضالة عن سر ذلك واهتدى إلى الجواب الصحيح لعلم أن الحق هو الذي ينتصر

دائماً، وأهله هم الفائزون.. وسنة الله تعالى أن يجعل لكل شيء سببا، فما السبب الذي دفع محمداً وأصحابه إلى فتح مكة؟؟

سؤال لم يحتج فضالة إلى كبير عناء كي يجيب عليه.. فهو لا يزال يذكر يوم أن غدرت بنو بكر - حلفاء قريش - بقبيلة خزاعة - حلفاء محمد - فحازوهم إلى الحرم، وأعملوا فيهم السيوف، ونقضوا العهد والميثاق. فانطلق عمرو بن سالم الأنصاري حتى قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة فوقف عليه وهو جالس في المسجد بين ظهراني الناس، فأنشده قائلاً:

يا رب إني ناشد محمداً
حلف أبينا وأبيه الأتلدا
إن قريشاً أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكدا
هَمُّوا بيوتنا بالوتير هجدا
وقتلونا ركعا وسجدا
فانصر هداك الله نصراً أعتدا
في فيلق كالبحر يجري مزبدا..

فأجابه منقذ الإنسانية: نصرت يا عمرو بن سالم.

ثم عرض لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه عنان من السماء فقال: إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب..

لم يكن فضالة بن عمير يذكر كل ذلك، فإنه لا يحيط علماً إلا ببعضه، ومعظمه إنما كان يجري في معسكر المسلمين.. والذي يذكره جيداً هو أن مكة الآن في حوزة المسلمين، وأن الأمر بالنسبة لقريش وحلفائها جد خطير.. رغم ما يبدو من أمارات السلام والأمان..

ويضع فضالة رأسه بين يديه، وقد اشتد أسفه، وتقطبت أساريره، ويستمر شريط الأحداث يمر في مخيلته فلا يزيده إلا نكداً.. ويرنّ في أعماق نفسه صوت أبي سفيان حين دخل مكة صارخاً بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، فتصيح في وجهه امرأة: قبحت من طليعة قوم!.. ويقول آخرون: قاتلك الله.. وما تغني

عنا دارك؟!

ولكن أبا سفيان لا يعيرهم بالاً ويستمر منذراً: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن.. ومن دخل المسجد فهو آمن. ويتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد، ويجد فضالة نفسه مندفعاً نحو أهله وذويه يغلق عليهم باب منزله، وهو يتميز غضباً..

وهنا ينتفض فضالة بن عمير من مقعده، وقد مسه حر الهاجرة.. وسمع وقع أقدام على مقربة منه، فيرفع طرفه ليرى كتيبة من جنود المسلمين تطوف في أنحاء مكة آمنين، فترتسم على محياه ابتسامة صفراء.. ويعقد النية على الانتقام.. فلا بد من تنفيذ الخطة التي رسمها في ذهنه من قبل، وما عليه إلا أن يتحين الفرصة، فإن أتيحت له، فليستل خنجره، وليغمده في مقتل من ذلك الرجل الذي سبب له ولقريش كل هذه الأزمات..

أما ما يعقب ذلك فلن يكون ذا بال.. فإنه حيثما يهرع المسلمون للقبض عليه، يكون قد فر بنفسه واحتمى برجال من قريش، وينتهي الأمر إما بإثارة الحرب والقتال أو بالمفاوضة والصلح، وبعد

ذلك يهون أمر الإسلام، وتتألب القبائل عليه كما تألبت من قبل في موقعة الأحزاب، ويسهل الإجهاز عليه.

وينهض فضالة من مكانه ملتفتاً عن يمينه ويساره مخافة أن يكون أحد يرقبه أو يسمع صوت تفكيره.. ويتوجه تلقاء الكعبة.. ولا يخطو خطوات حتى يلمح الناس مجتمعين حول الكعبة، ينبعث من بينهم صوت يقول:

يا معشر قريش.. إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء.. الناس من آدم وآدم من تراب ﴿يا أيها الناس إنَّا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾

يسمع فضالة هذا فينجذب إليه، ثم لا يلبث أن يقول في نفسه: هذا ما سحر به محمد عقول الناس.. ويتابع الصوت قائلاً: يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم؟ فيقولون: خيراً.. أخ كريم وابن أخ كريم. فيقول: اذهبوا فأنتم الطلقاء.

ويضيق صدر فضالة حرجاً رغم ما يحسه في

نفسه من دواعي السكينة.. ويتساءل في نفسه: هل بلغ الأمر بقريش من المهانة حتى يعفو عنها رجل واحد؟.. ثم من هو هذا الرجل.. أليس هو الذي آذته وعذبته وأخرجته وأصحابه..؟ آه.. لم يعد لقريش بعد اليوم سبيل إلى هؤلاء المسلمين.

ويكاد الدم ينفجر من أنف فضالة حين يشاهد بلالا يعتلي جدار الكعبة يرفع عقيرته بالأذان مردداً كلمات لم تألف قريش سماعها من قبل.. وكأنها المطارق، تنزل على رؤوسهم رغم عذوبة الصوت الذي يرددها، وجمال وقعه ونبراته... حتى يقول عتاب بن أسيد أحد سادات قريش: لقد أكرم الله أسيداً ألا يكون سمع هذا، فيسمع منه ما يغيظه.. ويقول الحارث بن هشام: أما والله لو أعلم أنه محق لاتبعته.. ويلتفت أبو سفيان حوله ثم يقول هامساً: لا أقول شيئاً.. لو تكلمت لأخبرت عني هذه الحصى!

وينظر الثلاثة فجأة إلى حيث يخرج عليهم النبي صلى الله عليه وسلم قائلاً: لقد علمت الذي قلتم. ويخبرهم بما قالوا. فيقول الحارث وعتاب وقد انفرجت أساريرهما وزال عنها أثر المباغتة:

نشهد أنك رسول الله. ما اطلع على هذا أحد كان معنا فنقول أخبرك.

يعلم فضالة بن عمير ما كان من أمر هؤلاء الثلاثة، فيعجب ويراجع نفسه فيما هو مقدم عليه، ويتردد قليلاً، ثم يندفع بكليته إلى مكان ما، حيث يجد الفرصة متاحة له لتنفيذ ما بيّته.. فهاهو ذا محمد بن عبدالله يبدو منفرداً، وقد انفرج عنه الناس قافلين، والمسلمون بين طائف وذاكر وساجد، والأمر لا يكلف إلا الإقدام.. وطعنة أو طعنات.. وينتهي كل شيء.. وإن فضالة ليتقدم بخطوات مضطربة.. وقد أخذت أوصاله ترتجف وعيناه تلمعان كالشرر، والجريمة ماثلة في مخيلته وتوشك أن تقترفها يداه.. وإذا بالرحمة المهداة وقد أشرق وجهه وافترت شفتاه، يلتفت إليه قائلا:

ـ أفضالة؟!

فلا يجد فضالة مفراً من أن يجيب:

ـ نعم فضالة، يا رسول الله.

ـ ماذا كنت تحدث به نفسك؟

ويرتبك فضالة، ويشيع الاضطراب في نبراته ثم

يقول:

ـ لا شيء.. كنت أذكر الله!

فيضحك النبي صلى الله عليه وسلم، والرفق باد في محياه ويقول:

ـ أستغفر الله..

ثم يضع يده على صدر فضالة، فيسكن قلبه، وتطمئن نفسه، ويذهب عنه الاضطراب، كأن دفقة من برد وسلام سرت إلى قلبه وتخللت أعصابه، فزالت وساوسه، وتبخر غيظه، وانقلب كله رضا وسكينة.. وإذا به تجيش نفسه فينطلق لسانه قائلاً: أشهد ان لا إله إلا الله، وأنك رسول الله.. وتبلل الدموع عينيه.. ثم يذهب يحدث الناس ويقول:

والله ما رفع يده عن صدري حتى ما من خلق الله شيء أحب إلي منه. وإنه ليعجب كل العجب من أمره، كيف تحول في لحظة من عدو إلى نصير، ومن مبغض إلى محب، ومن كافر بالله ورسوله إلى مؤمن إيماناً لا يساوره الشك.. لقد صدق العباس حين قال لأبي سفيان يوم الفتح: إنها النبوة..

ويسري في نفس فضالة شعور بالندم على ما فات من عمره، وهو بين القيان والدنان، لا يعرف من الدنيا إلا اللهو والعبث وعبادة الأوثان. على أنه لا تزال في العمر بقية، لو صلحت صلح العمر كله، ويفكر فضالة في تلك المرأة التي كان يتحدث إليها قبل إسلامه، فيرثى لها ويرجو لها الهداية، ويحمد الله أن جعل له من أمره رشداً وأنقذه من هلاك محقق.. ثم يقصد أن يمر عليها.. ليضع حداً فاصلاً في علاقته بها، ولعله يكون لها في حاله عبرة، فتقلع هي الأخرى عن حياة الجاهلية وتبذلها الرخيص.

وما أن يقع نظرها عليه حتى تناديه قائلة: هلم إلى الحديث.. فيقول فضالة: يأبى عليكِ الله والإسلام. فتقول: ويحك يا فضالة.. ماذا دهاك؟! أرغبت عنا؟ فلا يزيد فضالة على قولته: يأبى عليكِ الله والإسلام. ثم يدعها وينبعث قائلاً:

قالت هلم إلى الحديث فقلت لا
يأبى عليك الله والإسـلام
لو ما رأيْتِ محمـدا وقبيله
بالفتـح يوم تكسر الأصنـام

لـرأيْـت ديـن الـلـه أضـحـى بيـنـنـا
والشرك يـغشى وجـهـه الإظـلام

قطرات من دموع



الأستاذ الأديب
حسين القباني


واحة الكتب

قطرات من دموع

الأستاذ الأديب:
حسين القباني

كـانت ليلة من ليـالي الصيف المـاضي والقمـر يسكب فيضا من نوره على تـلال المقطم القـريبة من حي العبـاسية، والـظلال تـرسم مـع الضـوء صـوراً غامضة على الممرات المنحدرة، وليس في المكان غـير دقدقة حـوافر جـواد يسير بخـطوات واهية متثـاقلة، ووقـع خفيف لأقدام الحـوذي العجوز إبـراهيم وهـو يمضي بجانب جواده (بلبل)

ورغم النسيم الـرخـاء الـذي كـان يمسـح عـلى وجهيهما بيد رقيقة ناعمة فقد كـانت قطرات العـرق تتـألق في ضوء القمـر عـلى جبـين الـرجـل العجـوز وتنضح على جسد الجواد المتعب المتثاقل في خطواته.

كانا عائدين معا في تلك الليلة كعادتهـما كل ليلة منذ خمسة عشر عاماً...

ومسح إبراهيم وجه بلبل حـين رآه يتوقف لاهثـا

متعبا وهمس له:

- إقتربنا من البيت يابلبل كما تعلم، خطوات أخرى ونصل، ولن نشقى بعد هذه الليلة أبداً، فقد آن لنا أن نستريح حتى آخر العمر.

- ولما ربت بيده على وجه الجواد وجده مبللا، فلم يدر أهي قطرات من الدموع أم حبات العرق؟

وانحدر إبراهيم في طريقه إلى البيت وعادت به الذاكرة إلى الوراء إلى أعوام بعيدة لا يعرف لها عددا، إلى أيام الشباب التي كان يشتغل فيها حوذيا في قصر الأثرياء، ومرت على وجهه سحابة من الأسى وهو يذكر تلك الأيام من شبابه، فقد كانت أياماً سوداء قاسية، لم يشعر فيها لحظة أنه آدمي من حقه أن يعيش كما ينبغي أن يعيش الآدميون، كان يعلم أن نظام الرق قد أُلْغِيَ، ولكنه كان يعيش أذل من العبد المسترق.

وكان من الممكن أن يقبل هذا كله في صبر من أجل لقمة العيش، ولكن الذي كان يثيره ويكاد يذهب بعقله تلك النظرات الجوفاء التي يوجهها إليه السادة أصحاب القصر، فقد كانوا ينظرون إليه

وكأنه غير موجود، أو كأنه جزء متحرك ـ تافه الشأن ـ من أجزاء مركبتهم الفاخرة، وضبطه السيد الكبير ذات مرة وهو يلتقط من تراب الحظيرة بعض حبات الفستق التي سقطت ذات مرة من يد السيد وهو يطعمها للجواد، ووجد نفسه مضروبا ومطرودا من القصر وهذه الكلمات ترن في أذنيه:

ـ لم يبق إلا أنت يأكل الفستق وأنتقل إلى قصر ثانٍ وثالث ورابع والمعاملة واحدة لاتختلف في جوهرها، وكأن السادة الكبار قد تخرجوا من مدرسة واحدة لقنتهم دروساً خاصة كيف يعامل السيد الكبير أولئك الذين أراد لهم القدر أن يكونوا في خدمته ورهن إشارته؟

وتزوج إبراهيم، وأثمر الزواج أولادا لأن نظام الحياة كما يقول العامة يأبى إلا أن يعطي للفقير قرشا كلما احتاج قرشاً، وكثيراً ما كانت تعوزه الأيام به وبالأسرة الصغيرة في ضيق ومسبغة...

وتنحسر سحابة القلق عن وجه إبراهيم وهو يذكر كيف وفق أخيراً للعمل عند صاحب مركبات الأجرة وكيف استطاع أن يدخر مبلغاً من المال

اشترى به مهراً صغيراً أسماه «بلبل» وكيف تفاءل به فلم يفترق عنه يوماً منذ ذلك الحين حتى نشأت بينهما صداقة وطيدة قلّ أن يوجد مثلها بين إنسان وإنسان؟؟

كانا يخرجان معا في بكور الصباح صيفاً وشتاء ـ سعيا في سبيل رزقهما ورزق الأسرة.. وكان كل صاحب مركبات يزيد في عمولة إبراهيم نسبة معينة بسبب وجود بلبل معه.. وكان إبراهيم يجلس في مقعد القيادة، ويقضي النهار وجزءاً من الليل في السعي، بعيدا عن أولئك الذين كانوا ينظرون إليه على أنه قطعة تافهة من المركبات الفاخرة، ثم يعود مع بلبل ليتناول كل منهما عشاءه في المربط، الشعير وحبات الفول الجاف في المزود لبلبل، وخبز الشعير وحبات الفول المدمس على صندوق فارغ لإبراهيم.

وكان بلبل لا يأكل إلا إذا رأى صاحبه إبراهيم يمضغ الطعام أمامه، وقد حدث أن شعر إبراهيم ذات ليلة بوعكة وغثيان، فعافت نفسه الأكل وأبى الجواد أن يذوق شيئا حتى اضطر إبراهيم إلى أن يتظاهر بالمضغ.

ولما مرت هذه الذكرى بإبراهيم، امتلأ قلبه

بفيض جديد من الحب للجواد الوفي، فتوقف وعاد يمسح على عنقه في حنان وهو يهمس له:

ـ هل تعرف يابلبل لماذا سنستريح معا بعد هذه الليلة؟.. إن إبني الأكبر ممدوح قد نال شهادة مدرسة الصناعات منذ شهور، وظفر بمركز محترم في إحدىٰ الشركات منذ شهر، ولا شك أنه قبض اليوم مرتبه الأول... جنيهات يابلبل.. وأكبر ظني أننا سننعم الليلة بطعام شهي، فلا شك أن أم ممدوح قد وضعت لك كمية كبيرة من الفول والشعير والتبن وربما قطعة من السكر أيضاً، فمن يدري، فأنت يابلبل جدير بكل خير بعد أن شاركتني هذا الكفاح الطويل في سبيل الرزق، ولعلها تركت لي في صحنين أو ثلاثة، ملأى باللحم المشوي والأرز والفاكهة، نعم يابلبل لقد آن لنا أن نستريح...

وعاد إبراهيم مرة أخرى بأفكاره إلىٰ ذكرىٰ كفاحه المستميت مع جواده بلبل لكي يتيح لولديه مع جواده نصيبا من التعليم يجنبهما المذلة التي كان يشعر بها تحت نظرات السادة المترفعين.. وكان يحرم نفسه من كل شيء عدا لقمة الخبز والإدام، ليتيح لهما فرص التعليم، ويمهد لهما طريقا في الحياة أقل وعورة

ومشقة من طريقه . . .

ونجح الرجل في كفاحه، وتخرج ممدوح من مدرسة الصناعات، واشتغل بإحدى الشركات، وأوشك خليل أن يتخرج من مدرسة التجارة، ولا شك أن الاثنين سيحملان عنه عبء الإنفاق على أمهما وأخواتهما الثلاث، أما هو فإن ربحاً قليلاً من بيع الحلوى أمام المدرسة الابتدائية بالحي كفيل بتغطية نفقاته ونفقات بلبل معه . . .

والتفت إلى جواده باسماً وعاد يحدثه قائلا:

ـ نعم يابلبل إن قروشا قليلة ستكفينا معاً، وما أظن أن العمر سيمتد بنا عاما آخر، ولماذا يمتد وقد أدينا معا الجانب الأكبر من مهمة وجودنا.

وأحنى الجواد رأسه،وأخذ يمسح بوجهه وجه صاحبه، تاركاً عليها حبات من العرق، أو قطرات من الدموع . . .

وظل القمر يرسل ضوءه على التلال والممرات المتشعبة فيها، وظل السكون مخيماً إلا من وقع خطوات، ودقدقة حوافر ونحيب بومة هناك، ونباح كلب هنا.

وبلغ الاثنان المربط القريب من مسكن إبراهيم، وهناك وقف الرجل العجوز يطرف بعينيه في ذلك الشعاع الباهت من ضوء القمر الذي تسلل إلى المربط من فجوات في سقفه.

لا مصباح مضاء، ولا فول ولا تبن في المزود، ولا فول وخبز على الصندوق الفارغ. لا شيء ماذا حدث؟

كيف نسيت أم ممدوح أن تعد له ولجواده الطعام كما اعتادت كل ليلة؟

هل أطار صوابها الفرح برؤية الجنيهات.. مرتب ابنها. أم تراها أهملت أمره عمداً لأنه لم يرسل إليها نقوداً في منتصف النهار كالمعتاد كل يوم.؟

إن كان الاحتمال الأخير هو السبب فإن لإبراهيم العذر فماذا كان في وسعه أن يفعل مادام لم يربح في يومه لأول مرة في حياته غير ثلاثة قروش اشترى بها طعاماً لبلبل، وبقي هو بغير طعام حتى ساعته هذه..

ورغم هذا كله، فقد عاد راضياً وهو يعلم أن الله الذي قدر عليه الرزق في يومه هذا بسط له وللأسرة رزقا آخر عريضا عن طريق ابنه.

وهز رأسه مستنكراً وقال للجواد:

ـ لا يابلبل، إن أم ممدوح زوجة متعبة حقاً، وقد عشت معها صابراً من أجل الأولاد، ولكني أعتقد أنه مهما بلغ جحودها فلن يصل إلى حرماننا من العشاء في مثل هذا اليوم السعيد ـ محال محال.. امكث هنا حتى أذهب وأرىٰ ماذا حدث ثم أعود.

وأحس الرجل بشعور ثقيل مبهم يرين على صدره وهو ينقل قدميه في خطوات بطيئة نحو مسكنه الذي قضى فيه الخمسة عشر عاماً الأخيرة... مسكن بناه بيديه في هذه البقعة الموحشة من التلال، بناه من الطين والأعشاب وسقفه من الشجر الجاف، وما هي غير أسابيع حتى عمرت هذه البقعة الموحشة بعدد من الأكواخ المماثلة لزملائه والباعة الجائلين.. أما متاع هذه المساكن فلم يكن يتجاوز حصيراً أو قطعة من الخيش وبعض الأواني لطهو الطعام وغسل الثياب.

واجتاز ابراهيم المنحنى حتى أصبح قريباً من هذه الفجوة التي تؤدي مهمة النافذة في إحدى غرفتي مسكنه، فرأى بصيصاً من الضوء ينساب منها على

غير العادة، وشعر بأنامل باردة تعتصر قلبه خشية أن يكون أصاب الزوجة أو أحد الأبناء مكروه.

وما كاد رأسه يبلغ حافة الفجوة حتى سمع زوجه، أم ممدوح تقول لابنها بصوتها الأجش الذي يعرفه عنها:

- اسمع ياممدوح، إذا عرف أبوك حقيقة مرتبك وأن الشركة قررت لك خسمة وعشرين جنيهاً في الشهر فسوف يتواكل ويكسل، بل ربما يرفض العمل اعتمادا على مرتبك.. إنه رجل كسول كما تعلم، يحب الجوع والراحة، ولولا نخسي له يوما بعد يوم لكان حالنا اليوم غير هذا الحال، ولما أمكنك أن تتم دراستك..

وصمتت المرأة برهة ريثما تسترد أنفاسها، ثم استطردت تقول:

- انظر ماذا فعل اليوم..؟ إنه يعرف أنك ستقبض مرتبك هذه الليلة ولذلك لم يهتم بإرسال بعض المال كالمعتاد، ومن يدري.. فلعله ساهر الآن في «البوظة» كما كان يفعل في شبابه.. ثم لا تنس أنك وعدتني بثوب حريري تشتريه لي من أول مرتب تقبضه، وثلاثة أثواب لأخواتك، وقماش بدلة

لأخيك خليل، ولا بأس أن تدخر بعض مرتبك لتشرع في الزواج بعد أن يتوظف أخوك، وسوف أختار لك بنفسي عروساً كالقمر من بيت كريم أستطيع أن أعيش معها.

.. أما ذلك العجوز الفاني فما أظنه يصلح للحياة معنا.. سنتركه هنا مع حصانه اللعين..

وشعر إبراهيم أنه يسقط في هاوية عميقة مظلمة، وكأن كل كلمة يسمعها من زوجته سهم من النار يدمي قلبه، ولكن ترى ماذا سيقول ابنه؟.. ابنه الأكبر ممدوح، الذي سعد به يوم مولده وظل يرعاه ويعنى به يوماً بعد يوم، ويشعر بلذة الجوع ليوفر له الطعام، ويحس متعة الحرمان ليقدم له السعادة.. هل سيلقي على هذه الزوجة الجحود درساً في الوفاء..؟ هل.. آه.. ها هو ذا يتحدث قائلاً:

ـ اسمعي.. لا أنت ولا هو سينال من مرتبي شيئا.. يكفي أني صبرت على هذه الحياة القذرة كل هذه السنوات.. يكفي أني عشت الأربع سنوات الأخيرة ببذلة واحدة، لقد آن لي أن أشعر بالحياة

أن أرى الدنيا، أن استمتع بالطعام الطيب والمسكن النظيف.. والزوجة الجميلة..

وبعد برهة صمت، استطرد قائلا:

- إن الخدمة التي يمكن أن أؤديها لكم، هي أن أرحل عنكم وأوفر عليكم المال الذي كنتم تنفقونه علي..

وكأنما ألقى الشاب فكاهة تثير الضحك، فإذا هو يضحك عاليا، ثم يقول:

- سوف أرحل من الغد، فقد استأجرت مع زميل لي شقة صغيرة «بالظاهر».

ولم يستطع إبراهيم أن يسمع أكثر من هذا، فقد شعر كأن كلمات ابنه هي السهام الأخيرة التي أجهزت عليه، فتراجع عن النافذة، وعاد مترنحاً في طريقه إلى المربط وقد اختلطت في ذهنه الذكريات، بحلوها ومرها، واختلطت عند أقدامه الظلال بضوء القمر فإذا هي صور غامضة، وإذا نعيق بومة هناك يقطع السكون مع نباح كلب هنا..

وعاد الرجل إلى المربط، وركع بجانب جواده،

وتمتم بأنفاسه الأخيرة قبل أن يسقط مغشياً عليه:

ـ كله عند الله يابلبـل.. إن الله لن ينسانـا أبداً يابلبل..

وفي عصر اليـوم التـالي، كـان المارة في شـارع العباسية يشاهدون نعش رجل في طريقـه إلى مدافن بـاب النصر، وكـان وراء النعش عـدد قليـل من المشيعـين، ووراء هؤلاء جـواد عجـوز يسـير في ضعف شديد وقد تعلقت عيناه بالنعش المحمول..

ويقـول بعض الذين شـاهدوا هـذا المنـظر، إنهم لمحـوا حبات من العـرق تتساقط من جبـين الجواد، ويؤكد غيرهم أنها كانت.. قطرات من دموع..

الفهرس

الفهرس